عنترة بن شداد

١١

دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

عنترة بن شداد

١١

تأليف

حسن جوهر محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

١

جاء بني عبس رسول الملك النعمان ، وأخبرهم بما وقع له مع خداوند من أوله إلى آخره ، وأن الأمر انتهى به إلى أن أقام فى ديار بنى شيبان هو وأهله وعشيرته ومن رحل معه من قومه ، ويطلب منهم أن يكونوا على استعداد لنصرته ومعونته ، فقد بلغه أن خداوند سيأتيه بجيش قد جمعت له الجموع من كل ناحية ، فقال قيس : ولمَ لم يرحل إلينا ليقيم فى ديارنا ولنحمى أختنا وحريمه بسيوفنا ؟! فقال الرسول : لقد أشار عليه رجاله بذلك فقال : إنى رأيت فى المنام أن نصرتى على يد هانئ بن مسعود وقد وصانى سطيح الكاهن أن أستعين به وألا أفارقه ، فشق على عنترة ومن معه ما سمعوا ، ولكنهم أخفوه فى نفوسهم . ثم أكرموا الرسول وأجابوه إلى ما طلب .

أما جيش الفرس فقد رجع مهزوماً إلى المدائن ، ولكن إياس بن قبيصة أقام فى الحيرة وأدرك أن ملكه فيها لا ثبات له مادام النعمان حيًّا فكتب إلى جميع القبائل أن يجتمع فرسانها بأرض النجف وأنذر المتخلف دماراً وهلاكاً ، وأكد هذا الإنذار بقسمه فى كتبه التى أرسلها ، ثم كتب إلى خداوند بما وقع لجيشه وقال : إنك قد وليتنى ملك الحيرة خلفاً للنعمان ، وإن لم

تساعدنا بجيوشك أهلكنا رعاة الأغنام ، وقوّضوا عرش كسرى ، وما ذلك علينا بهين ، وعزز كتابه هذا ما حكاه له المهزومون من جيشه ، فغضب خداوند وثار ثورة أفزعت حاشيته ، وقالوا له : إن الخطأ كان منك فى بادئ الأمر ، لأنك أرسلت فى طلب زوجة النعمان ، وهو فى مكانه من الملك والسلطان وعزة الجانب ، وفى حرية تسمح له أن يجمع لك الجموع وينال منك ما يريد ، وكان الأجدر بك أن تخفى أمرك فى صدرك ثم تدعوه إليك ، فإذا ما جاءك أمسكته وحبسته وطلبت منه ما أردته لنفسك ، وقد استشرى عليك الداء وخلقت بينك وبينه عداوة حامية ، ولا مخلص لك من هذا المأزق الحرج إلا أن تجمع له جيشاً كبيراً لتقضى عليه وتستريح . واعلم أنه ربما طلب معونة ملك الروم فجاءه بجيش جرار طامعاً فى ملكك وتقويض عرشك ، وذلك خطر جسيم جلبته لنفسك بخطتك الأولى التى ما كان ينبغى أن تكون . فقال خداوند للموبذان : ما دام أمرنا قد بلغ مداه من الخطر ، فإنى أقود الجيش وأسير معه ، ولا أرجع إلى ديارى حتى أكون قد طهرت البلاد من كل عدو وطامع ، فقال ابنه شيرسان ، وكان فارساً جباراً : دع الأمر لى يا أبى ، ولا تخرق قواعد ملك كسرى بخروجك إلى العرب ، فقال خداوند : إنى أخاف عليك من هؤلاء العرب الذين يجدون فى الموت حلاوة لا يجدها جيش من جيوش العالم . فقال وزيره بزرجمهر : كفكف من غضبك وخوفك ، واترك الأمر هذه المرة لولدك ،

وأنا معه أساعده بالرأى والتدبير ، وسأحضر إليك النعمان مكتفاً ، أو أقدم لك رأسه على سنان رمح من رماح جندك . فاستراح خداوند ووكل الأمر إليه وإلى ابنه شيرسان ، وأمره أن يأخذ معه من يشاء من الجنود . وكان كسرى يأتيه من البلاد كل عام مائة ألف فارس ومعهم أموالهم وأولادهم فإذا انقضى العام رجعوا وجاء غيرهم وهكذا ، وفى الوقت الذى أراد شيرسان أن يسير إلى النعمان كان الفرسان قد وصلوا ، وامتلأت بهم المدائن ، فعرّفهم شيرسان أنهم راحلون إلى القتال وبيّن لهم ما فعله النعمان بملكهم ، فقالوا : سر بنا إلى حيث تشاء فلن تجد إلا فرساناً يرفعون رأسك حيث تكون .

اختار الوزير من هؤلاء سبعين ألفاً ، وساروا إلى الحيرة واجتمعوا بجنود إياس بن قبيصة الذين استجابوا لدعوته ، وأتوه من القبائل المختلفة ، وبعد ثلاثة أيام سارت هذه الجموع وسبقتها الأحاديث عن كثرة فرسانها وقوتهم ، وكان قيس بن مسعود خال هانئ بن مسعود ممن وصل إليهم نبأ هذا الجيش ، وكان من عقلاء قومه وحكمائهم ، فخاف على ابن أخته ، وجمع إليه عقلاء قومه وقال : أخبرنا الكهان والحكماء أن هذه السنة يكثر فيها القتال وسفك الدماء ، والدليل عليها ذلك الجيش الجرار الذى أرسله خداوند ابن كسرى ليحارب العرب ويقضى عليهم كما يزعم ذلك ، وأرى أن نجمع جموعنا ونخرج إليه على أننا من رجال إياس بن قبيصة الذى جاء معه

ليساعده ويعينه على قتال العرب ، ونسير معهم إلى أرض ذى قار التى لبنى شيبان . هناك ننظر فى أمر النعمان ، فإن وجدناه فى جمع كثير يستطيع أن يلقى به هذه الجموع الكسروية انحزنا إليه ، وقاتلنا معه وكنا قوة فى صفوفه ، وإن وجدناه فى نفر قليل صبرنا حتى تبدأ المعركة ، ثم صحنا فى جيوش العجم بكلمات عرفتها من سطيح الكاهن ، وستعرفون منى هذه الكلمات فى حينها ، ثم تجتهدون فى ضرب الأعداء بالسيوف وطعنهم بالرماح ، وإنكم لواجدون بعد ذلك نصراً مبيناً ، فقالوا له : أنت شيخنا وكبيرنا وصاحب الرأى فينا فمرنا بما ترى ونحن طائعون .

جمع قيس فرسانه ، وارتقب قدوم الجيش الكسروى ، ولما دنا من دياره ، ركب فى مائة فارس ، وخرج لاستقباله ، فلما رأوا إياس بن قبيصة وكان فى صدر الجيش نزلوا عن خيلهم ، ومشوا إليه ، وسلموا عليه ، ورفعوا أصواتهم بالثناء والدعاء لملك الدولة الكسروية وجيشه ، وكان إياس قد أضمر فى نفسه أن ينهب أموالهم ويسبى نساءهم ، ولكنه عجب من أمرهم إذ لقيه كبراؤهم هذا اللقاء الحميد ، فقال لقيس بن مسعود : عجبت من أمركم ، كيف غاضبتم قومكم وخرجتم على عشائركم وكنتم معنا عليهم ؟ فقال قيس : أبعد هذا العمر الطويل ترمينى بالجهل وقلة البصر بالأمور ؟ وهل ينكر الشمس إلا من عمى بصره أو ذهب عقله ؟ ! لقد وجدت أن من عادى الملك خداوند بن كسرى فقد فرط فى نفسه ، ولو كان لى

سلطان على النعمان ما تركته يذهب إلى ابن أختى ، ولأسلمته ومن معه إلى الملك خداوند ، ولو كان لدى النعمان عقل ما عصى الملك حين طلب منه بعض نسائه ، ولقد أرسل إلىّ رسوله يطلب منى نجدة ومدداً ، فسخرت منه ورددته إليه كئيباً خائباً ، وقد كنت عولت على أن أجمع رجالى وأرحل بهم إليك ولكنى علمت قدومكم فجئتكم مرحباً ، وإن أردتمونى ورجالى على الرحيل معكم والقتال فى صفوفكم فذلك أحب الأشياء إلى نفوسنا . فشكره إياس ، وأثنى عليه ، وقال له : ارجع إلى أصحابك ، ومرهم أن يركبوا خيلهم ، وأن يستبشروا بكل خير ، ثم اجتمع إياس بالوزير وابن الملك وأفضى إليهما بما وجد من قيس بن مسعود خال هانئ ، فقال الوزير : رحب بهم وعدهم عنا كل خير ، واجعل قيسا يجمع رجاله ويسير بهم أمامنا ، فإذا وصلنا إلى ذى قار والتقينا ببنى عمومتهم تركناهم يبدءون القتال معهم ، فإن وجدناهم صادقين ناصحين فهم منا ، وإن نافقوا وأحجموا عن القتال كنا عليهم ، وأعملنا سيوفنا فيهم ، فقال إياس : ذلك هو الحق ، ثم رجع إلى قيس ومنحه كثيراً من الهدايا ، وبلغه ما أشار به الوزير ورآه ، ففرح قيس لما سمع ، ورجع إلى قومه فاختار منهم ألفين معه ، وجعل الباقين يرحلون إلى ذى قار بالأموال والعيال والحريم ، وكان قد أرسل إلى النعمان بما كان بينه وبين إياس ، وأمره أن يتأهب للقتال ، ووعده أنه سيكون أقوى معين له وأصدق نصير .

أفضى رسول قيس إلى النعمان بما حمله وشرح قوة الجيش الكسروى وكثرته فدعا إليه هانئ بن مسعود وحجار بن عامر والكبراء من قومهما وألقى فى مسامعهم ما جاء به رسول قيس ، ثم قال : إن طابت نفوسكم إلى معونتى والقتال معى بعثت إلى القبائل الموالية لتمدنى بجنودها ، وإن كنتم فى غضاضة وكراهية من معونتى فلا لوم عليكم ولا عتاب ، ولكنى إن علمت ذلك منكم رحلت إلى بنى عبس حيث أجد هناك الصون والمعونة ، فقال هانئ : ما أنزلناك فى أرضنا لنغفل شأنك ، ولتهان فيها ، ولكن لنجعل من نفوسنا وسيوفنا سياجاً بينك وبين أن تهان أو تذل ، فلا تضرع إلى أحد من العرب ولا تستنجد بقريب ولا بعيد ، ولا تفزعك كثرة الجيوش الكسروية ، فإن فى قدرتى أن أطلع بك وبأهلك وبالأموال على هذا التل الذى تراه ، ثم أدافع عنكم وحدى ، وأفنى بسيفى هذا جنود الأولين والآخرين ؛ فشكره النعمان ، وحمد له جميل مروءته ، وعظيم رجولته ، وثبات قلبه ، ثم نشر رسله بين القبائل والحلل يطلب العون والمدد .

وجاءه من مكة وزيره عمرو بن نفيلة ، وكان من الحكماء المعمرين ، الذين يرتقبون ولادة النبى الكريم ، فقال له : سمعت ما كان من جور الملك خداوند واستكباره وعناده ، فجئتك لأشد عزمك ، وأبشرك أن دولة كسرى قد دالت ، وأن ريحهم قد ذهبت ، فحاربهم وإن كانوا ملء الأرض ، فإن البركة فى ذىقار ، فقال النعمان : إنك ما عرفت أن

الأعداء يطلبوننى فى مائة ألف فارس ، وليس معى أكثر من ثمانية آلاف ، فحدثنى بما عندك حتى يملأ صدرى اليقين الذى يملأ صدرك ، فما أنا بمستطيع أن أحمل النفس على ما تقول وتبشرنى به ، فأسر الوزير إليه وقال : جمعنى البيت الحرام وحكماء العرب ومن درج على التنبؤ بمخبآت الأيام ، فرأينا جميع الخلق كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، فهذا يعبد الصليب ويقبله ، وذاك يعبد النار ويقدسها ، وهذا يسجد للفلك ، وذاك يركع لصنم من خشب أو حجر ، فقلنا : إن العالم مريض ، وإن لم يدركه الطبيب وقع فى هوة الفناء ، وأكل بعضه بعضاً كما تأكل النار الحطب ، فقال سطيح الكاهن : أما الطبيب فقد حان يوم مولده ، وطلوع شمسه ، وستظهر المعجزات بعد ولادته ، فتخمد النيران ، ويتصدع إيوان كسرى وتنتصر العرب على العجم فى يوم ذىقار ، فقلنا له : وهل تعرف اسمه قبل أن يولد ؟ فقال : اسمه محمد ، وهو ما لم تسم به العرب أحداً قبله ، وقد قدمت إليك حاملا لك هذه البشرى ، وقل لرجالك ينادون عند اللقاء : يا محمد . . . ثم انظر النصر يأتيك من كل ناحية ، فاستبشر النعمان ، وقال : لئن صح هذا لأحجن بيت الله الحرام ، ولأذكرن فضل هذا الرجل ما حييت .

ولما وصل الجيش الكسروى إلى أرض ذىقار قال هانئ بن مسعود : لا ينبغى أن نتركهم حتى يستقروا فى أرضنا ، ولا بد من المسير إليهم

لنبغتهم بسيوفنا حتى نظفر بالنصر الذى وعدناه ، فقال النعمان : ما رأيك فيما يقول هانئ أيها الوزير ؟ فقال : لا تعص لهانئ أمراً فإنما نصرك على يديه ، فركب جميعهم وهموا بالمسير ونادى هانئ فى قومه وقال : ودعوا عيالكم وداعاً لا رجوع لكم من بعده ، ومن تبغى على غير هذا فليقعد مع النساء ، وليترك لنا ذلك الميدان ، ثم سار قدام النعمان حتى كان بينهم وبين ديارهم مسيرة فرسخ ، فناداه الوزير عمرو وقال : لا تبعد عن الديار بجنودك ، فإن الجيش الكسروى كثير عدده ، ولا نأمن أن يغير بعضهم على الحريم والعيال ، فانزل مكانك ، وارتقب وصول الفرس إلينا ، وسوف ترى كيف يكون القتال ، ثم أخذ هانئ حجار بن عامر وخمسة فرسان وساروا نحو الأعداء ليتبينوا أحوالهم ، فرأوا عشرة فرسان قادمين فاستعد هانئ للقائهم لأنه ظنهم طلائع الجيش الكسروى ، ولما تراءوا عرف بعضهم بعضاً ، فأقبل هانئ إلى خاله ، وسلم عليه . وسأله عن حاله ، فقال : يا بنى ، لقد هالنى كثرة الجيش الكسروى ، ففزعت من أجلك ، وقص عليه قصة مكيدته ، ثم قال : ولما نزلنا فى أرضكم قلت لإياس بن قبيصة : ائذن لى أن أسير إلى ابن أختى فى عشرة فرسان لأبين له كثرة الجيش وقوته ، وأحذره من لقائه ، وأطلب منه أن يسلم إليكم النعمان دون قتال ولا سفك دماء ، فنحن وهم رعيتكم ، وأجدر برحمتكم وحمايتكم ؛ وما زلت به أرقيه بمثل هذا الكلام حتى أذن لى ، وقد أتيتكم لأرى ما دبرتم وما أعددتم

للقاء هذا الجيش الجرار ، ومن جاءكم من العرب ليقاسمكم دفع الضر عنكم فقال : ما أجابنا أحد منهم ، وقد كرهت من النعمان أن يذل لأحد ويطلب منه نجدة أو معونة ؛ أما هذا الجيش الكسروى وكثرة عدده فسألقاه ومن معى بسيوفنا ورماحنا ، وسوف ترى ما يحل به من الدمار . فقال قيس : وكيف أطمئن إلى أن تلاقى هذا الجيش بثمانية آلاف تضل فى كثرته ، ولكن أذهب خوفى وثبت قلبى كلمة سمعتها من هاتف ألقاها فى أذنى وأنا جالس بين اليقظة والنوم ، فقد جلست مفكراً فى مصيرك أمام هذا الجيش حتى خدر جسمى ، وضعف حسى ، فسمعت من يقول : يا قيس ، لا يضق صدرك بما تفكر فيه فقد قضى الأمر وكتب النصر للعرب بظهور سيد البشر ، من أرسله الله رحمة للعالمين ، وستخمد النيران لمولده ، وينشق إيوان كسرى ، وينتصر العرب بالسماء نصراً مبيناً ؛ وأوصيك أن ينادى العرب ويصيحوا فى المعركة : يا لمحمد ، يا لمحمد . . . وعندئذ سترى النصر قد نزل من السماء . فانتبهت فزعاً ، وهذا ما دعانى إلى أن أحتال وأجىء إليك فتبسم هانئ لأن هذا القول وافق قول الوزير عمرو بن نفيلة الذى نقله عن سطيح الكاهن بمكة ، ثم حدثه بما سمع من هذا الوزير . ففرح قيس وقال : سر بنا إلى النعمان لنجدد عهدنا معه ، فلما كان بين يديه حدثه بجميع ما فعل من الحيلة ، وما عزم عليه من معونته ، ثم قال : وقد جئتك بالدروع التى كانت لك وديعة عندى

وستصل إليك الليلة ، ثم قال لهانئ: خذ منا خيلنا وأسلحتنا وسنرجع إليهم مشاة عزلا ، وإذا سألونا قلنا لهم : إنكم أمسكتمونا وأردتم أن تقتلونا ، فما زلنا نسترحمكم ونستعطفكم حتى سمحتم لنا بالعودة من غير خيل ولا سلاح .

٢

رجع قيس وفرسانه إلى إياس بن قبيصة فوجدهم على تلك الحال السيئة فسألهم عما جرى لهم فقال : سرت إلى ابن أختى أحمل له النصح والخير فلقيت منه كل كيد وشر ، فلقد بينت له سوء عمله ، وخوفته من هذه الجموع التى تحمل له ولمن معه الموت فى سيوفها ورماحها ، وأمرته أن يسلم النعمان قبل أن ينزل بهم البوار ، فغضب وأبى ، وأمر بنى شيبان ، فتسابقوا إلينا ، وكتفونا ، وقال : لقد انتهكتم حرمة القرابة والنسب ، وقدمتم لتنصروا العجم على العرب ، فلا جزاء لكم عندنا إلا قطع الرقاب ، ورمى رءوسكم أمام هؤلاء العجم الذين اتخذتموهم أصحاباً لكم ، فلما رأيت رقابنا تحت سيوفهم قلت لهم : لا تقطعوا ما بيننا من صلة الرحم ، ولا تجعلونا شؤماً على قومنا وسبباً لهلاكهم ، فإن معنا ألفين من الفرسان ، وهم فى جيش العجم ، وفيهم سادات بنى شيبان فإن أبطأنا عن الجيش الكسروى ظنوا أننا خادعناهم وانحزنا إليكم ، فقطعوا رقاب الألفين ، وكنا سبباً فى فناء بنى

شيبان ، فرقت قلوبهم وقالوا : لا نجاة لكم من أيدينا حتى تقسموا أنكم لا تكونون لنا ولا علينا ، فأقسمنا لهم أن نكون كما أمروا ، حتى نعتق رقابنا من سيوفهم ، وأشرت على قومى بذلك ، وقلت لهم : إن جيوش الملك العادل خداوند فى غير حاجة إلينا وإلى أمثالنا .

انخدع إياس بهذا القول وصدقه وقال : وهل عرفت مبلغ ما عندهم من الجموع ومن جاءهم من القبائل لينصر النعمان علينا ؟ فقال : وعزة جاهك أيها الملك ما وصلنا إلى ديارهم وجموعهم ، ولكن هانئ بن مسعود لقينا على مسافة فرسخين من جيوش النعمان ، وكان معه الأسود أخو النعمان ، فى أربعة آلاف فارس من بنى شيبان ، وقد سألت ابن أختى عن جموعهم وفرسانهم فقال : إن من ورائنا جيوشاً كأنهم النجوم عدداً ، وما فى الأرض بقعة ليس فيها جمع لنا ، وهم ينتظرون أمر النعمان ، وقد حدثنى أنه جعل العرب فرقاً وطوائف وبعثرها لتكمن فى مخابئ لا نعرفها ، حتى إذا سرنا إليهم وطمعنا فيهم انشقت الأرض عن هذه الفرق والطوائف وطلبتنا بسيوفها ورماحها من كل ناحية ، فقال إياس : ذلك تدبير لا يخيفنا ، فإن جيوشنا من الكثرة بحيث لا تبقى ولا تذر ، وأما أنت فلقد أعفيناك وقومك من القتال ، فعد إليهم وحدثهم بما سمعت .

أما إياس بن قبيصة فإنه ذهب إلى شيرسان فوجد معه الوزير وجماعة من الكبراء فحدثهم بما سمع من قيس بن مسعود ، فقال شيرسان :

لا أرجع وفى هذه الأرض بيت قائم لعربى ، وليجمع النعمان جموعه ، وليدبر تدبيره وفى الصباح أجعل جيشى فرقاً وكتائب ، أبعثرها هنا وهناك فقال الوزير : دعك من هذه الغضبة الثائرة ، ولا تنس أن النعمان ملك العرب ، وكلهم فى طاعته، ولهم سيوف قدت من الموت ، وقلوب أثبت من الجبال ، ويأبون القعود عن القتال ، وإن جاءهم من فى الأرض جميعاً ، وأرى ألا تفرق جيشك ، ولكن نهجم عليهم بالجيش كله ، ولا نزال نضربهم بالسيوف والأعمدة والرماح حتى نقضى عليهم ، ولا نبقى منهم أحداً ، فأيد رأيه الحاضرون ، وباتوا عليه إلى الصباح .

وكان هانئ بن مسعود قد ضرب قبة وصبغ حبالها بصبغة حمراء، وحرم على جنوده أن يتخطوا حدودها مهزومين، ومن تخطاها قتل ، وفرض عليهم ألا يغادروا الميدان إلا منصورين أو مقتولين. ولما رأى بنو شيبان هذه الجموع الكسروية خافوا على عيالهم، فأشاروا عليه أن يرجعوا إلى ذى قار عندهم فقال: من تخطى حدود القبة المضروبة قتلناه ، أما العيال فإنى أبعث الغلمان ليحضروهم من خلفكم ليكونوا تحت حسكم وبصركم ، واستشاروا النعمان فى ذلك فرضى ، وأنفذ هانئ الغلمان إليهم فأحضروهم وأنزلوهم من خلفهم ، وجاء النعمان حينئذ ومعه الدروع فوزعها على الفرسان ، ونصح هانئ إلى قومه فقال : لا تخافوا من سيوف الأعداء ورماحهم فإنها لا تصيبكم إلا بأمر من ربكم ، واعلموا أن

الموت لا يدفعه حذر ، ولا يرده قوة من جن أو بشر ، واستقبال الموت المحتوم خير من استدباره ، وأنتم بثباتكم كثيرون فى نظر أعدائكم ، وسترون بعد قليل أنكم الغالبون .

وبانت جنود العجم كأنها جبال مرصوصة ، أو سحب متتابعة ، ونظرت الجيوش الكسروية فوجدت جيوش النعمان طوائف طوائف ولكل طائفة علم مرفوع يخالف الأعلام الأخرى ، وكان هذا من تدبير الوزير عمرو بن نفيلة ليوهم الفرس أن العرب جاءوهم من كل صوب .

رأى وزير خداوند العرب على هذه الحال فدعا إليه إياس بن قبيصة وسأله عن ذلك فقال : كل علم من هذه الأعلام أصحابه معه ، وهم كامنون من ورائه والدليل على ذلك أن هذا العلم الذى يرفرف أمامك علم الملك قيس ونحن لا نراه حاضراً ، ولو كان ظاهراً لنا لرأيت معه عنترة ابن شداد وأصحابه كدريد بن الصمة ، وخفاف بن ندبة ، ودثار بن روق والعباس بن مرداس السلمى ، وسعد بن إياس الجشمى وغيرهم من الأبطال الذين لا يرهبون الموت ، ولقد بان لنا الآن صدق الملك قيس بن مسعود فيما أخبرنا به عنهم ، وأرى أن نبدأهم بالمبارزة حتى نتبين قوتهم وصبرهم وثباتهم ، فأمر الوزير بضرب الخيام ونزلوا حيث كانوا .

وكان مع الفرس طائفة أتت لتنهب وتغنم ، فبرزت للقتال ولكن هانئ ابن مسعود وفرسانه سحقوهم وشردوهم ، وأعجب شيرسان بقتال بنى شيبان

فتنكر وترك خلفاً له فى خيمته ، وزج بنفسه بين الفرسان .

واصطفت الصفوف ، وبرز هانئ بن مسعود إلى الميدان ونادى : هلموا يا كلاب العجم ! ! فهأنذا هانئ بن مسعود مفرق الجماعات ، وساقى كل بطل كأس الممات ، فبرز إليه فارس ديلمى فهجم عليه هانئ فجعله صريعاً مجندلا فى دمائه ، وتتابعت إليه فرسان العجم لتلقى حتفها ، وقتل منهم نحو مائة وخمسين فارساً ، فأحجمت عن مبارزته الأبطال ، ثم رجع إلى جنده ، وركب جواداً غير الذى كان معه ، وجزع شيرسان جزعاً أليماً وهمّ أن يبرز هو نفسه إلى هانئ فمنعه الوزير وأشار إلى فارس جبار من حجاب الملك أن ابرز أنت إليه ، وكان يحارب بالعمود ، فبرز إليه ، ولما أعياه الأمر ألقى السيف من يمينه وأمسك العمود ورمى به هانئاً فنزل عن جواده حتى مرق العمود وذهب فى الفضاء ، ثم امتطى الجواد فى سرعة خاطفة وانقض عليه بسيفه فضربه ضربة شقته نصفين ، وكان له أخ أشد منه قوة وبأساً فبرز إلى هانئ ليثأر لأخيه وكان معتمداً على « الوهق » الذى يحارب به ، ولكن شجاعة هانئ أبطلت شجاعته و « وهقه » وضربه بالسيف ضربة جعلت نصفه الأعلى على يمين جواده ، ونصفه الأسفل على يساره ، ورجع جواده ناكس الرأس من الخيبة ، وكان الليل قد أقبل ، فجاءه النعمان وشكر له جميل صنيعه وقال له : لقد تعبت يا هانئ وكفانا ما فعلت ومن قتلت ، فاسترح أنت

ودعنا نخوض المعركة بالجنود لنلقى ما سجله القدر فى سجل الغيب ، فقال هانئ : ما دام القوم يطلبون المبارزة فلن يبرز إليهم أحد غيرى ، وإذا ساقهم الطمع إلى أن يحاربوا وينقضوا علينا بجموعهم فافعل أنت ما شئت ودبر الأمر كما أردت ، وكان حجار بن عامر قد فتك بجماعة من العرب الموالين للفرس ، فزاد النعمان بذلك اطمئناناً .

اجتمع كبراء الفرس بالوزير ولاموه لأنه منعهم من الهجوم واختار المبارزة التى فتكت بأبطالهم وأظهرتهم بمظهر الضعف والعجز ، فقال لهم : ما اخترت المبارزة إلا لأنى أعلم أن وراء هذه الجنود الذين ترونهم جنوداً لا يحصون عداً ، فإن العرب لا يقعدون عن نصرة النعمان ملكهم أبداً . وأرى أن نبعث أربعة آلاف فارس إلى ما وراء جنود النعمان ، على أن يوسعوا المسير فى البيداء ليكشفوا لنا عمن خلفهم على أن يرجعوا إلينا فى الصباح ، لنكون على بصيرة من أمر هذا القتال ، وإن كان لهم كمين من خلفهم وانقض على فرساننا قاتلوه وبعثوا إلينا لندركهم ، أو نحمل على النعمان لنوقعهم فى الارتباك والاضطراب ، وإن لم يجدوا كميناً جاءونا وأخبرونا ، وحينئذ ندير القتال ونصرفه على أساس من نصرنا وهزيمة الأعداء ، استراح القوم لهذا الرأى وأرسلوا ألف فارس وجعلوهم فرقاً ، ومع كل فرقة عشرة من فرسان قيس بن مسعود خال هانئ ليدلوهم على الطريق ، وبات الفرس ينتظرون عودة فرسانهم الذين خرجوا يكشفون لهم عن أخبار النعمان وجنوده .

أرسل قيس بن مسعود إلى ابن أخته من أخبره بقدوم ألف فارس من الفرس ليتبينوا أحوالكم ومع كل فرقة منهم عشرة فرسان من أصحابي فاخرج إليهم فى فرسانك ولا تبق منهم بقية ، وخذ عندك من تجدهم من فرسانى ، وقد وصيتهم بذلك . وذهب الرسول إلى هانئ وأخبره وقال له : سيكون الفرسان فى مكان كذا من الوادى .

وجعل الرواد من أصحاب قيس يسيرون بهم فى الصحراء حتى أتعبهم السير ، ولعب النوم برءوسهم فساقوهم إلى مضيق فى الوادى ، ورآه الفرس مكاناً حصيناً ينزلون فيه للراحة قليلا ، وقالوا : ما دمنا لم نجد أحداً من العرب ، فلنسترح قليلا ثم نعود إلى جيوشنا ، فنزلوا واضطجعوا ، أما روادهم من أصحاب قيس فإنهم قالوا لهم لا يمكننا أن ننام معكم لأننا رواد كم ولا بد أن نمسك أفواه المضيق ونقف فيه حراساً عليكم ، حتى نرجع بكم إلى الجيش سالمين .

نام الفرسان وغرقوا فى نومهم ، أما هانئ فإنه جاءهم فى فرسان كثيرين ومعه حجار بن عامر ، ففرقوا فرسانهم على أفواه المضيق حتى لا يهرب منهم أحد ، ثم انقض عليهم هانئ وأعمل فيهم سيفه ، فاستيقظوا على سفك الدماء وضرب الرقاب ، وطلبوا الهرب فاستقبلتهم سيوف الفرسان الذين وقفوا لهم بالمرصاد ، وكان أن فنى الفرسان جميعهم ، فأخذ هانئ خيلهم وأسلابهم ورجع بجنده ، وأشار حجار على هانئ أن يأخذ رءوسهم ويرميها بين

أيدى الفرس فى الميدان ، فقال هانئ : لن يكون هذا أبداً ، لأنه يفتح باب الشر على خالى قيس ، ويتهمونه بأنه خادعهم ووصى رواده أن يعلموا بأمرهم ، ولكن الرأى أن نتركهم حيارى لا يدرون عنهم شيئاً ، وحينئذ يجزعون ويجزع خالى معهم حزناً على أصحابه الذين كانوا معهم ، فنكفل له السلامة من شرهم .

بات وزير الفرس فى قلق ومخافة على بعثته وسريته ، ولما جاء الصباح قلق النعمان أيضاً لغيبة هانئ وحجار وفرسانهما فأراد ، أن يبارز الأعداء هو وأخوه الأسود حتى يحضر هانئ ومن معه ، فقال له وزيره : البس أنت ثياب هانئ واظهر فى هيئته ، وأخوك الأسود فى هيئة حجار حتى لا يطمع فيكم الأعداء ، واطمئنوا فإن الفرس لن يبدءوكم بالقتال حتى يرجع إليهم فرسانهم الذين أرسلوهم ليكشفوا أخبارنا .

تزيا النعمان بزى أهل الحجاز وبرز إلى الميدان فقتل من برز إليه من الأبطال وكانوا عشرة ، فزاد غيظ شيرسان وبرز إلى الميدان فلقيه النعمان وجالا وصالا وكان أن طعنه النعمان فى صدره طعنة غير قاتلة ، ثم طعن جواده فأكبه على الأرض ، وعند ذلك ماج الجيشان وانقض كل منهما على صاحبه ونشبت معركة حامية ضجت لها الأرض والجبال ، ولما رأى عمرو بن نفيلة أن الأمر قد اشتد على النعمان وجنوده ركب جواده ونادى فيهم أن قولوا : يا لمحمد ! يا لمحمد ... ! فإنه اسم مبارك يأتيكم

النصر من السماء بذكره ، فصاحوا جميعهم : يا محمد ... ! وصاحت النساء من خلفهم : يا محمد ... ! وسمع الفرس هذا النداء فظنوا أن السموات والجبال والأشجار والأرض من تحتهم تنادى : يا محمد ... ! وفى تلك الساعة جاءهم هانئ ومعه ثلاثمائة فارس ، وكان قد وكل إلى المائتين الخيل المغانم ، فحمل من معه على الأعداء وهم ينادون : يا محمد ... ! وما زال فيهم السيف يعمل حتى قتل هانئ شيرسان ؛ ثم وجد الفرس أنهم بغتوا من كل ناحية : فهذا جيش الملك قيس وبنى عبس ، وهذا جيش دريد بن الصمة سيد بنى جشم ، وهذا جيش عمرو بن معد يكرب الزبيدى فحار الفرس وذهلوا وأصبحوا لا يدرون ما يفعلون ، فانسلوا سراعاً إلى البيداء هاربين ، ثم رجع العرب من خلفهم وقد غنموا من الأموال والأسلاب ما لم يروا معه فقرا أبداً . وبعد هذا اجتمع الملوك بالنعمان وعتبوا عليه أنه لم يخبرهم بمسير الفرس اليه ولم يستنجد بهم ، فشكر لهم جميل معروفهم وقال : كان اعتمادنا على هذا الاسم المبارك الذى نزل من السماء ، وكتب لنا بسببه النصر والفوز العظيم ، وأشار عليه دريد بن الصمة أن يرحل معه إلى جبال غزية ليحميه من ملك الفرس الذى لن يسكت عنه بعد هذه الهزيمة الشنعاء . فقال الملك قيس : نحن أولى بصهرنا ، وهو أجدر بالمقام عندنا لنكون أنصاره وحماته ، فقال النعمان : شكراً لكم ، فإنى لن أفارق هانئ بن مسعود الذى نصرت بسيفه وكان له

الفضل العظيم ، فجعل هانئ يمدح ملوك العرب ويشكر لهم نجدتهم المباركة وعطفهم الجميل .

والتفت النعمان إلى الملك قيس وقال : أين عنترة بن شداد ؟ فقال قيس : قامت بيننا فتنة وتركنا غاضباً ، فلامه النعمان على أن فرط فيه ، وقال دريد لقد جرى بين عنترة وذى الخمار أمور تحار فيها الألباب ، فقال النعمان : وأين عنترة وذو الخمار من هذا البطل الذى لن يسمح بمثله الزمان ، و إنى قد اتخذته حامية لى ، ولا يهمنى — ما دمت مع هانئ ابن مسعود — إن سعدت أو شقيت ، فأحزنهم كلام النعمان ورجعوا وهم متألمون .

٣

ولما رجع الملك قيس سأل الربيع عن أحوال العشيرة وعن عنترة فقال الربيع : أسر عنترة فى بلاد الشام وأسر معه نحو أربعمائة وخمسين فارساً ، ولا ندرى كيف أسروا ولا ما وقع لهم ، وقد رجعت عبلة فى خمسين فارساً ونزلوا على بنى غطفان فى أرض بنى فزارة كارهين أن ينزلوا عندنا ، لأنهم وجدوا فى ذلك شيئاً من المهانة .

أصاب قيساً غمٌّ عظيم وأدرك أن عرش ملكه لا ثبات له على هزات

الزمن وزلزلة الحوادث ، بعد غيبة عنترة وهجره أوطانه ، وساءه أن كان سبباً فى نزوحه عن الديار فعض بنان الندم ، وزاد فى حسرته أن وجد النعمان صهره على أرجوحة الزمن وفى مهب حوادثه ، ولا يدرى مصيره ، وقال : ليتنى ما سمعت يا عنترة فيك قول حاسد وشانئ .

كان لقيس عبد زل وأخطأ ، وكان الخطأ جسيما يرتقب فيه هذا العبد القتل والإعدام ، فلجأ العبد إلى إخوة الملك قيس واستجار بهم ، فأبوا أن يجيروه مستكبرين خطأه ، وقالوا : دونك البيداء فاخرج إليها هارباً ، وفيها متسع لك ولأمثالك ممن يخطئون مثل خطئك ، وكفاك منا أنك دخلت بيوتنا وتركناك تطلب النجاة والمفر ، فذهب إلى الربيع وإخوته ليجيروه فقال الربيع : لو أن ذنبك دون هذا ، أو كانت خطيئتك فى رجل غير الملك لأجرناك ، فاهجر الديار وانزح إلى بلاد اليمن ، فخرج هائماً على وجهه فى البيداء لا يدرى له وجهة ، وأرسل الملك فى أثره غلماناً ليدركوه ويأتوه به ، فانفلتوا كالريح من ورائه ، فلما رآهم من خلفه يطلبونه أسرع فى جريه حتى دخل على عنترة فى قبته وألقى بنفسه بين يديه باكياً شاكياً وقال : لقد اجترحت خطيئة كبرى ، وأهدر الملك دمى ، ولا مجير لى إلا عنترة بن شداد مجيب المضطر ، وحامى الضعيف ، فقال عنترة : دخلت بيتاً يأمن فيه الخائف ، وينعم فيه الشقى البائس ، فكن آمناً وإن طلبك كسرى وقيصر . وجاءه غلمان قيس فقال كبيرهم : لا تجره يا عنترة فإن

الملك قيسا يطلبه ، وقد عزم أن يقتله ويصلبه لخطأ جسيم وقع فيه وما ينكره ، فقال عنترة : ارجعوا فقد أجرته ولا سبيل لأحد عليه مهما يكن أمره ، فألحوا عليه ، وبالغوا فى إلحاحهم ، فصاح فيهم صيحة أفزعت أخاه وميسرة وجماعة من عشيرته ، فهبوا إليه ، وعرفوا ما صاح من أجله ، فانهالوا عليهم تقريعاً ، وأنذروهم إن لم يرجعوا ، فخافوا وانقلبوا خائبين ، ودخلوا على الملك قيس ، فأخبروه وافتروا على عنترة بعض الكذب ، وقالوا : طردنا وزجرنا وهمّ أن يقتلنا وقال : ارجعوا إلى قيس وبلغوه أنى أجرت عبده ولن يقدر عليه أحد ، فلا يتعب نفسه بطلب المحال . فإن ركب متن الغرور ولج فى طلبه ، فالعبد عندى وليفعل ما يشاء ولا يلومنّ إلا نفسه .

فلما سمع الملك قيس هذا نكس رأسه ، وانزوى فى نفسه ، وأحس الصغار والضعة ، وكان الربيع وأخوه عمارة حاضرين ، فوجدا مجالا للخوض فى عنترة ، أما بقية الحاضرين فمنهم من رضى موقفه ومنهم من أنكره ، وقال الربيع : لقد استجار بنا هذا العبد فطردناه ، واستجار بإخوة الملك فلفظوه ، وهذا ابن زبيبة يرى نفسه فوق الأحرار ، فلعن الله يوماً جعلناه فيه لحقاً فى نسبنا ، ودعوناه حامية بنى عبس وذبيان ، وإن الموت لأهون على نفوسنا من هذه الضعة والمسكنة ، وقال عمارة : إن نفسى لتذوب حسرة وأسى حين أسمع أن ابن أمة يحمى أبناء الكرام الأحرار ، ولعن الله قبيلة ترضى أن تعيش فى حماية عبد زنيم ، وبعد سكتة طويلة رفع

الملك رأسه وقال : كثيراً ما احتملنا ضيما أليماً من عبد شداد بن قراد ، ثم استشار أعمامه ومن حضر فيما يفعله ، فقال الربيع : اطلب عبدك من عنترة ، فإن أجاب واعتذر فلا عتب عليه ولاملامة ، وإن أصر على عناده وأبى ، فانفه من أرضنا . ولعنة الله علينا إن جاورناه بعد ذلك وإن كنا بين فكى الموت .

أرسل الملك ابن عمه قرواش بن هانئ إلى عنترة ، وقال له : لا ترجع إلا ومعك عبدى ، وإلا فإنى سائر إلى بنى قراد لأشمت بهم الحساد .

ذهب قرواش إلى عنترة ، ونقل إليه ما جرى ، وبعد أن فرغ قرواش من قوله الذى نقله عن الملك قيس قال : إن عند الملك حساداً لا تخبو لهم نار ، ولا يسكت فى أفواههم لسان ، وأرى أن تطفىء الفتنة بطرده والراحة منه ، فقال عنترة : ذلك ما لا مطمع لأحد فيه ، فرجع قرواش إلى قيس فلما رآه سأله : أين العبد يا قرواش ؟ فقال : إن عنترة صلب الإرادة ، ولا يزال مصراً على أن يجيره ، فقال الربيع : وكيف نطاوعه على إرادته وهو عبد والعبد لا حكم له على سيده ؟ فنهض قيس واقفاً ، وركب ذاهباً إلى عنترة ، فحجزه إخوته وقالوا : أتريد أن توقد فى العشيرة ناراً لا تبقى أحداً ؟ فقال : لا بد من أن أذهب إلى هذا العبد الخاطئ المستكبر ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، فقال أسيد : أشير عليك برأى تبلغ منه مرادك ولا لوم عليك فيه ، ولا يصيب العشيرة منه ضرر ، ثم اعتزل

به الناس ، وقال : إن المغيظ المحنق لا رأى له ، وإنك إن ذهبت له لا تأمن أن يرفع السيف فى وجهك وعنده الآن مازن وابنه ميسرة وكثير من فرسانه وله كثير من المحبين الذين يدافعون عنه بأنفسهم وما ملكت أيمانهم ، فارجع إلى بيتك ، ونحن إذا جاء الليل وغرق الناس فى نومهم ذهبنا فى جماعة من الغلمان الأشداء خفية ، وحملناه إليك ، وحينئذ تحكم فيه بما تشاء ، فإما قتلته ، وإما نفيته من أرضنا . فقال قيس : ذلك ما أردته ، ولاأحب أن أراه بعد ذلك ، وقد كرهت حاجتى إلى سيفه ، وجعل أسيد يرقيه حتى رضى ورجع ، وانصرف من عنده من الناس ، وذهب أسيد إلى مضربه ، وكان يحب عنترة ويكره له كل شر ، فأرسل إليه بعض غلمانه سراً ، وبلغه ما جرى ، وقال له : يحسن أن ترحل من الديار ، وتترك العشيرة يحل بها من الهوان ما لا قبل لها بدفعه ، وحينئذ سيفرون إليك مستصرخين وتعود إليهم سيداً كريماً .

جمع عنترة أهله وفرسانه وقال : لقد رأيت ألا أقيم بجوار قيس ، وقد عزمت على الرحيل ، فقالوا : ذلك ما أردنا ، حتى يقع القوم فى الهوان الذى لا يقدرون على دفعه ، فإلى أين عزمت ؟ فقال : إلى أرض الحجاز على مقربة من الشام .

ورحل عنترة ليلا فى خفية ومعه خمسمائة بيت من بنى قراد وعروة ورجاله وأتباع عنترة ، ومشوا فى البيداء جادين .

ولما جاء الليل سأل قيس أسيداً عما فعله فقال : لقد ذهبنا إليه فوجدناه قد ترحل فى خمسمائة بيت من بنى قراد ومعه أتباعه ورجال عروة، وقد بلغنى أنه أنفذ الحريم والأموال أمامه وتأخر هو فى أربعمائة فارس وقال : سأقطع دابر كل من يدركنى أو يطلبنى ، وإن كان فى جيش كسرى وقيصر ، ولهذا وقفت عن السير وراءه لأدركه وآتيك به . ولما بلغ الربيع نبأ رحيله أرسل من خلفه بعض غلمانه ليعرفوا أين نزل ثم يرجعوا ، وذلك ليدبر الربيع له المكائد فى منزله الجديد ، طمعاً فى أن يقطع دابره ودابر فرسانه وأتباعه ، فصدعوا بأمره .

وصل عنترة ومن معه إلى أرض تيماء ، فأشار عليهم شيبوب أن ينزلوا فيها على غدير بنى خويلد ، فنزلوا وأقاموا مضاربهم وأطلقوا فى المراعى أموالهم ، وكانت هذه البقعة مخيفة لا يؤمها أحد ، ولا يمر بها عابر إلا وفى قلبه من المخافة ما تنخلع له القلوب . ولهذا جعل عنترة عليهم حرساً يتناوبون الحراسة ليلا ، ليكون آمناً على قومه أن يطرقهم طارق ، ولكن القدر لا يدفعه حذر .

كانت الحراسة هذه الليلة على مازن وابن أخيه ميسرة ، فركبا وجعلا يطوفان ويسيران هنا وهناك ، ثم غلب النوم مازنا فنام على ظهر جواده على حسب عادة الفرسان والأبطال ، وبعد ساعة استيقظ فوجد ميسرة قد انتحى ناحية وهو يناجى أسماء فى حزن وألم وحسرة ، فقال له مازن : ذلك

امر قد فات ومن الرأى أن تسلوها ولا تطمع فيها لا يكون ، فقال ميسرة : لولا خوفى من أبى لأخذتها حيث كانت وإن أحاط بها جيوش كالجبال ، وأما أن أسلوها وأنساها فذلك ما لا أملكه ولا سلطان لى عليه ، وقد هرب أبوها بها إلى بنى عبس وتبعته ، ووقعت فى يدى ، ولكن أبى قضى بها لحيد ، فصبرت على الأذى وما أنا بمستريح حتى أنالها . فقال مازن : سأخالف أباك هذه النوبة ، وسآتيك بها الليلة ، وسنذهب بها إلى الشام وهناك نقيم ولا نأتى إلى قومنا حتى يتنازل أبوك عنها ، فقال ميسرة : إن فى الشام أعداء كثيرين لأبى ولهم ترات عنده ، فقال مازن : إنهم لا يعرفوننا وسنظهر للملك عندهم بالفروسية النادرة فيجعلنا من المقربين عنده ونعيش هناك أعزة ، فقال ميسرة : ذلك جميل ، وأصرا على تنفيذ ما رأيا ، غير حافلين بما ستبدى لهما الأيام من حوادث .

٤

دخل مازن أبيات مجيد وأهله ، وكانت مضروبة على رابية طاب نسيمها ، واطمأن بهم المقام فيها ، ووقف ميسرة خارج الأبيات لحراسته من كل طارق يأتيه فيحجزه عن إتمام مراده ، أو يكون سبباً فى كشف أمره .

مازن يخطف أسماء من غرفة نومها ويخرج بها

ولما دخل بيت مجيد وجده مستلقياً معترضاً فراشه ، وهو يغط فى نوم عميق ، ووجد امرأته أسماء غارقة فى نومها عند رجليه ، فوضع يده على فمها ، وحملها وأسرع بها إلى حيث ميسرة ينتظره ، فناوله إياها ، وجرى هابطاً بها من الرابية ، وكان الشراب قد خدَّر جسمها وأثقل نومها ، ثم احتضنها على جواده وأرخى له العنان فطار بهما فى الفلاة ومازن من خلفهما على جواده ، فأصبحوا وهم من البيداء فى مكان سحيق .

لم ينتبه مجيد من نومه ولم يفق من سكره إلا بعد أن طلعت الشمس ، فتفقد امرأته فى بيته فلم يجدها ، فظن أنه أساء إليها فى غفوة سكره وذهوله ، فذهبت إلى بيت أبيها غاضبة ، وأرسل بعضاً من عبيده يسألون أباها وأهله عنها فقالوا لهم : لم نرها منذ ثلاثة أيام ، فتأججت حيرة زوجها ، وظهرت على وجهه آثار القلق والحزن . كما حرك السؤال عنها فى صدور أهلها نوازع إشفاقهم وخوفهم عليها ، فجاءوا زوجها وسألوه عن قصة فَقْدِها ، فقال : لا أدرى من أمر فقدها شيئاً ! ! ولا أدرى ما أفعله ! ! ثم رأوا أن يذهبوا إلى عنترة ويطلعوه على هذا الحادث المباغت المحزن ؛ فغضب عنترة وقال : ائتونى بأخى مازن وابنى ميسرة ، فجعلوا يطلبونهما فى كل مكان من هذا الحى فما وجدوا لهما أثراً ، ولا عرفوا لهما خبراً ؛ وشاع هذا الحادث بين الناس ، وعنترة حائر يفكر ولكنه لا يهتدى فى أمر هذه المرأة إلى سبيل ، ثم قال له شيبوب : لا تتعب نفسك بالتفكير فى أمر هذه المرأة ولا تستمع

فيها لقول أحد ، فهى فيما أعتقد لم تفلت من يد ابنك ميسرة ، فقد شغف
بها حبًّا ، ولولا استحياؤه منك ما صبر عليها هذه المدة الطويلة ، وأظنه شكا
إلى أخيك مازن ما يقاسيه من الآلام بسببها ، وطلب إليه أن يعينه على
الحصول عليها ، فدخل أحدهما بيتها واتخذ الآخر له حارساً ، ثم سرقاها
وفرا بها إلى الشام ، ولا إخالنى إلا صادقاً فى حدسى وظنى .

فقال شداد : لقد ذهبت يا شيبوب مذهب أهل العقول فيما ظننت ،
ولا إخاله إلا حقًّا .

فقال عنترة : حينئذ نركب خيلنا فى أثرهم ولا نعود إلا بهم ، ثم
التفت إلى عروة بن الورد وأمره أن يتأهب هو ورجاله لينفروا جميعاً لهذا
الأمر ؛ فقال شداد : وكيف ننفر برجالنا ونترك نساءنا فى تلك القفار
دون أن يكون معهن رجال؟! . وقد يطول اغترابنا عن أموالنا ونسائنا فنكون
بذلك قد فرطنا فى جنبهن لقاء شىء يسير هو طلب ابنك وأخيك ، وربما
أصابهن من الأذى فى غيبتنا ما لا نحبه ولا نستطيع السكوت عنه .

فقال عنترة : وكيف أصبر على هذه الحال وأترك ابنى وأخى يفلتان
من يدى ؟ ! ! لا صبر ولا إفلات ! وذلك أن نذهب بنسائنا وأموالنا إلى
بنى غطفان فى أرض بنى فزارة حيث يكنّ فى مأمن من المخاوف ، ونترك
معهن حامية من الرجال تقرب من المائتين تكون لهن ردءاً عند الحاجة ، ثم
نذهب فى أربعمائة فارس باحثين عن مازن وميسرة حتى نرجع بهما وبزوجة

مجيد التى اختطفاها من بيته ، فنال هذا الرأى إجماع القوم ورضى عنترة .

اصطحب عنترة أربعمائة فارس ، وجعلوا وجهتهم بلاد الشام حيث
يظنون أن ميسرة ومازناً فرا بزوجة مجيد إليها ، مقتفين آثارهم ، جادين فى
طلبهم ، حتى كانوا فى واد ضيق حرج ذى رمال ميثاء ، يقوم على حافتيه
جبلان عاليان ، بهما كهوف ومغارات ، وكان الحر لافحاً يشوى الوجوه ،
ويذيب الرءوس ، وتكاد صخور الجبال ورمال الوادى تشتعل من شدته ،
وبينما هم يتململون من تعب السفر وزفير الحر أخذتهم صيحات من أعالى
الجبلين تردد اسم عيسى ومريم ، ورموا بحجارة من هنا وهناك ، وكأن
طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فأحسوا خطراً محدقاً ، ووجدوا عطباً
لا يقدرون على دفعه إذ لا يستطيعون الصعود فى الجبلين ، ولا أن ينسلوا
من الوادى سالمين . ففروا إلى الكهوف والمغارات يلوذون بها ، ولكنهم رُدوا
عنها بنبال الأعداء الكامنين فيها ، فاعتصموا بالصبر على ما أصابهم ،
واستسلموا لذلك المصير الذى يرتقبهم ، وقد أصابت الحجارة كثيراً منهم ،
وأصيب عنترة بحجرين كبيرين أطاحا بحسه وشعوره ، فأخلد إلى الأرض
ساكناً لا يتحرك ولا يحس ، وأصيب أبوه شداد وعمه مالك وابنه عمرو وكثير
من الفرسان البارزين بمثل ما أصيب به فى هذا الحادث الذى ينم عن
ترصد مدبر من عدو غادر .

دبر هذا الحادث الأليم الربيع بن زياد ؛ وهو كما تعرف خبيث

الطوية عظيم الحقد شديد المحال والمكر . لا تبدو له فرصة للفتك بعنترة إلا انتهزها ، وهيأ الوسائل لنجاحها غير مقصر فى ذلك ولا وان ، ولهذا فقد جعل عبيده يتعقبون عنترة فى أثناء رحيله هو وأهله من ديار بنى عبس لينقلوا إليه أين ذهب ! وأين أقام ! حتى لا يكون جهله بدار مقامته حائلا بينه وبين الاستمرار فى الغدر به وتدبير المكايد لقضاء نحبه ؛ ولما ارتد عبيده بخبره سعى سعيه الظالم الغادر ، فأبلغ سنان بن حارثة وحصنا أن الملك قيساً ندم على فراقكم ، وغضب على عنترة إذ كان سبباً فى ارتحالكم وهجركم أوطانكم غضباً عظيما ، وأمرنا أن ندبر حيلة لاغتياله ، جزاء تكبره وغلظته ، واحتقاره كبار القوم من أمثالكم . ولما وقف عنترة على غضبة مليكه خاف على نفسه ففر هارباً هو وأهله . وقد بلغنى أنه هاجر إلى أرض قريبة من أرض تيماء ، وظهر له ابن وأخ هما أشد فتكاً بالناس من الموت الأحمر ، وقد دفعنى حبى لكم وإشفاقى عليكم من بأسه وفتكه أن أبلغكم هذا وأن أوصيكم بالاحتراس منه ، وأرى أن تنفروا إليه فى فرسانكم وتسقوه كأس منيته ، وحينئذ تكونون قد حققتم رغبة فى نفس الملك قيس ، وقضيتم على المتاعب التى يصنعها لكم ، ورجعتم إلى دياركم كما كنتم سادة مكرمين .

غرّ سنانا هذا القول المعسول ، فذهب فرحاً إلى الحارث الغسانى صاحب دمشق ، وكان هذا يحمل لعنترة كراهية وحقداً ، وألقى إليه الخبر

ليستعديه ويستأذنه فى الخروج إلى عنترة والتنكيل به ، فقرت بذلك عين الحارث ، وأمره أن يخرج إليه فى ثلاثة آلاف من فرسان العرب ، ووصاه ألا يقتل عنترة ، ولكن يحضره إليه مكبلا فى أغلاله حتى يذيقه أليم عذابه ويرسله إلى الملك قيصر أسيراً ذليلاً ليكون له شرف الانتصار على عنترة وفخر التغلب عليه ، فتنتشر مهابته ويخلد ذكره .

صدع سنان بأمر الحارث وسار فى ألوفه حتى كان وسط الوادى الضيق الحرج المحصور بين جبلين فألقوا بأنفسهم فيه يستريحون ، وبينما هم فى راحتهم إذ مر بهم مازن وميسرة وزوجة مجيد وهم لا يعرفونهم فجىء بهم إليه كما أمر وسألهم : من أنتم ؟ وإلى أين تذهبون ؟

فأجابه مازن : نحن قوم من اليمن خرجنا من بلادنا غضاباً نبغى المقام فى بلاد الشام

ومن هذه المرأة الباكية ؟

إنها ابنة عم هذا الشاب — وأشار إلى ميسرة .

فانفلتت المرأة من صمتها قائلة : لقد كذب هذا وما أسمعك إلا إفكاً وبهتاناً ، إنه مازن أخو عنترة ، وهذا الشاب ميسرة بن عنترة ، وأنا زوجة مجيد بن مالك أخى الملك قيس ، وقد اجترحا خطيئة وإثماً باختطافى من فراشى سرقة واغتصاباً ، وأرجو أن يكون لقائى بك دفعاً للسوء عنى .

فأمر سنان أن يوثقا فى أغلال الأسر ، ووصى بزوجة مجيد أن تحترم

وتكرم ، ووعدها أن يردها إلى بيتها آمنة مكرمة ؛ فذهب عنها الحزن بما سمعت ، وارتقبت تنفيذ الوعد فى أمل عظيم ، ثم قال لرجاله : إنى أعلم أن عنترة يحب مجيداً ويعزه ولن يهمل أمر زوجه ، وسيخرج هو ورجاله فى طلب ابنه وأخيه ، وقد يربو عددهم على أربعمائة فارس ، وفى أغلب الظن أنهم سيسلكون هذا المضيق ، فاقعدوا لهم فيه واجعلوا أنفسكم فريقين ، أما أحدهما فليعسكر فى أعالى الجبلين ، ليلقى على عنترة ورجاله الحجارة والصخور ، وأما الآخر فليعتصم بالكهوف والمغارات ، حتى إذا ما أوى عنترة ورجاله إليها هرباً من الحجارة التى يرمون بها ردهم هذا الفريق عنها بسيوفه ونباله ورماحه ، فنفوز فوزاً عظيما ، ونحقق ما خرجنا من أجله دون قتال .

وكذلك فعلوا وانتصروا ، وحملوا عنترة وكثيراً من رجاله على خيولهم ، وعادوا إلى دمشق الشام فرحين بنصرهم . وكان قد هرب من رجال عنترة فارسان طارا إلى نساء بنى عبس النازلات على الهطال ابن أخت عنترة فى بنى غطفان ومن معهن من فرسان الحامية وأفضيا إليهم بما لقى عنترة ورجاله فى الوادى .

عنترة ورجاله محصورون فى الوادى : تسقط عليهم الحجارة من فوق الجبل ، وتتعقبهم السيوف من الكهوف والمغارات

٥

ولما رجع الملك قيس من أرض ذى قار أخبره الربيع بن زياد بأسر عنترة ورجاله، فأصابه غم من بعد غم وضرب كفاً بكف قائلا : الآن حقت كلمة الهلاك على بنى عبس ، وأدبرت الدنياعنهم ، وطمع فيهم غير ذى مطمع ، فقال الربيع : وما شأن بنى عبس بما يجرى على الناس من حوادث ؟ فقال : لقد غضب الملك كسرى على النعمان وأنزل به وبأهله ومن يناصرهم الذل والهوان ، وأعتقد أنه لن يسكت عنهم حتى يقطع دابرهم ، وقد كنا نتخذ من النعمان خير معين وأقوى سند ، وهذا عنترة حاميتنا خسرناه وضيعناه ، ولن تقوم لنا قائمة بعده ، ولو بقى فينا ما حفلنا بضياع ملك النعمان وغيره، وما عبأنا بأية قوة توجه إلينا من أى عدو . فقال عمه أسيد : إذا كنت قد علمت أن بنى عبس من غير عنترة لم تكن شيئاً مذكوراً فلمَ فرطت فيه وطردته منكراً فضله ؟ ! ولمَ لمْ تمسكه على عشيرتك وقومك ولم تفرط فيه مهما يكن من أمره ؟ ! ألستَ أنت الذى أغضبته وطردته ؟ ! فقال : اعتمدت على النعمان وجنوده ولم أدر ما خبأه له الزمان من هوان ومحنة ، وذلك من فرط البطر وقصر النظر ، فقال :

وكيف تستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير وتترك قوة من لحمك ودمك فى ديارك ومتناول يدك إلى قوة أجنبية تستجدى معونتها ولا تدرى أهى مستجيبة لك أم هى مغفلة شأنك ؟ ! فقال : ذلك ما كان ، وما كان لنا أن نمحو ما كتب لنا أو علينا .

أسلم قيس نفسه إلى حزن أليم ، وندم عظيم ، وجعل يتنسم الأخبار بنجاة لعنترة ، أو اطمئنان للنعمان وجنوده ، وبينما هو جالس فى جمع من عشيرته طلع عليهم أعرابى قادم على ناقته ، وكان عبداً للنعمان يعرفه قيس فنزل عن ناقته، وشق ثيابه ، وصاح باكياً نادباً : يا لعبس ! يالعدنان ! الثأر الثأر ، هبوا من سباتكم ، والبسوا سود ثيابكم ، والطموا وجوهكم مات النعمان الذى كان عمادكم . فهلع قيس ومن كانوا يجلسون معه وقال : واصهراه ! قطعت شجرة الكرم ، وغابت شمس العرب والعجم ، ثم سأل الأعرابى : كيف تمكن كسرى من النعمان ؟ وهل سلم هانئ بن مسعود أو قتل معه ؟ فقال الأعرابى : لقد سلم هانئ وقد سبقته إليكم ، كما سبقه فى إثرى حجار بن عامر والأسود وأخوه عمرو بن هند وأختك المتجردة ومن يعرف بالشجاعة من أكابر كندة ولخم وشيبان ، فاركب إليهم ، واشكر لهم ما قدموه من معروف فقد خلصوا أختك ونساء النعمان من ذل الأسر والهوان .

خرج قيس ومعه كثير من وجوه العشيرة ، وتبعهم النساء لابسات

السواد ، مسفرات الوجوه ، منفوشات الشعر يبكين ويندبن . فالتقوا بالمتجردة ومن معها على حال حزينة وعادوا جميعهم إلى الديار ، ثم شكرهم قيس على ما قدموه من معروف .

* * *

لما هزم الفرس فى واقعة ذى قار تفرقوا فى الصحراء طوائف هائمة ، فالتقى بهم سبيع بن الحارث الملقب بذى الحمار ومعه سبعة فرسان من بنى غزية آثروا على الزواج سبي النساء ، وكان قد طرده دريد بن الصمة لغلظته وجهله ، وتكبره وغدره ، فخرج قاصداً النعمان ليقيم عنده ويطيب له العيش فى كنفه ، وما كان يعرف ما حصل بين النعمان وكسرى ، فسأل بعض فرسانهم : أرى خلقاً كثيراً عليهم آثار الهزيمة والتشرد ؟ ! ! فأجابه : أذاق الله النعمان لباس الخوف والعذاب ، وحرم عليه الاطمئنان والراحة فهو الذى فرقنا أيدى سبا ، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : ما سمعنا إلا أن كسرى رغب فى أن تزوره زوج النعمان ، فغضب ، وقال : ما للنساء تزور الملوك ؟ ! وماذا يبغى منها ؟ ! لا أظنه إلا أنه قد حاد عن الجادة ، وخالف سنن آبائه من التزام العدل والنزاهة فى الحكم ، وأصبح من هؤلاء الملوك الذين إذا دخلوا قرية

أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وما لمثل هذا العاهل الذى ضل سعيه إلا أن يقتل أو يذل ويعزل .

وكان قد رد رسول كسرى حاملا إنذار النعمان ووعيده جزاء ما أبدى من رغبة فى زيارة من زوجه ، فغضب كسرى وأعلن خلعه وأرسل إليه جيشه ، وفى أرض ذى قار التقيا وكان ما كان من هزيمة كسرى وقتل ابنه وتشريد جيشه .

وكان من بينهم فارس أمرد يدعى هانئ بن مسعود وهو الذى خب فى القتال ووضع ، وما فعل بقية الفرسان معه شيئاً يذكر ، فأنكر أن يغلب فارس واحد هذه الألوف المؤلفة ، وظن أن الذى سأله يهذى أو يبالغ فى خبره ، فجعل يسأل غيره وغيره فلم يجد إلا إجماعاً على أن هانئ بن مسعود وحده هو الذى أنزل بهم هذا البلاء ، فاشتعلت فى صدره نار الحسد ، وقال لمن معه : كيف تحمل الأرض فارساً يفوقنى شجاعة وقتالا ؟ ! ! فقالوا : لا تحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، واعلم أنه ما من قوة إلا وفوقها قوة ، وما من شجاعة إلا وتعلوها شجاعة ، وليس الناس سواء فيما وهب لهم من المزايا ، فاقنع بحظك ، واشكر لله ما أعطاك ومنحك ، فقال : لن أرضى إلا بأعلى المنازل ولن أسكت عن فارس يزعم أنه أشجع منى ، ولا بد من لقاء هانئ هذا فإما قتلته ، وإما أسرته . وذهبت به إلى كسرى فأنال بسببه الحظوة لديه ، وإما غلبنى فقتلنى أو أسرنى ، فقالوا :

لك رأيك فافعل ما تشاء ، ثم سار فى طلب هانئ بأرض ذى قار ، وكذلك استجاب لما فطر عليه من خيانة وغدر فبدل وجهته من الإقامة فى كنف النعمان وظله إلى قتال فارسه الذى أعانه فى الشدة ونصره .

٦

وخشى إياس بن قبيصة أن يعود إلى كسرى بعد الهزيمة وانفضاض العرب من حوله فبقى فى الحيرة . وأما وزيره بزرجمهر فقد رجع فى بقية عسكره وأفضى إليه بما حل بهم من الدمار ونعى إليه ابنه شرسان فجزع كسرى جزعاً أخرجه عن ثبات الملوك ووقارهم ففزع الحكماء والعلماء إلى كبيرهم معبد بن حسان وقصوا عليه قصة الهزيمة وجزع كسرى وأشاروا عليه أن يخفف من وقعها على نفسه ، فجاءه وجعل يواسيه ويعظه ذاكراً له حوادث الغابرين وأن الدنيا إلى زوال وأن كل حى فيها مهما يعش فهو ميت ولا يليق بالملك أن يستخفهم الجزع ويذهب ثباتهم ووقارهم ثم التفت إلى الوزير بزرجمهر وسأله : كيف غلبكم النعمان ؟ ! فقال : كان النعمان فى ثمانية آلاف فارس ، وما غلبنا بهم ، ولكن غلبنا بفارس أمرد

يدعى هانئ بن مسعود من بنى شيبان ، وكانوا كلما صاحوا مرددين اسم محمد ارتعدت منا المفاصل ، واضطربت أسلحتنا فى أيدينا ، وخيل إلينا أن الأرض قد امتلأت بالرجال والسلاح من أعدائنا ، وأن السماء تمطر علينا وابلا من العذاب. وفى تلك الساعة التى دارت فيها أعيننا فى رءوسنا من الخوف قتل شرسان ، فلم نجد منجاة لنا إلا الفرار والرجوع على أعقابنا ، فقال الحكيم : صدقت ، فقد اجتمع فى ذلك الوقت خمسة كواكب فى برج واحد وذلك دليل على ظهور رجل مؤيد من رب السماء ، ينشأ فى البيت الحرام ويدعو إلى شريعة الملك العلام ، وقد رأينا فى ديارنا هذه دلائل ظهوره ، فقد تصدع الإيوان وسقطت شرفاته وانطفأت النيران ، وذلك أمر فوق طاقة البشر وهو من حظ النعمان وسعده وعما قليل يتغير الحال وتفترق الكواكب ويزول البؤس وتنفرج الشدة ، فقال كسرى : لن أترك الثأر من العرب وسأخرج إليهم على رأس جيش يسدّ الأفق ولا يترك على أرض العرب أحداً ، وسأذبح أبناءهم وأبقر بطون الحوامل من نسائهم ، أما النعمان فسأصلبه وأتخذ منه للملوك عظة وعبرة . وسأفعل بهم ما فعله فرعون ببنى إسرائيل ولن يدركنى الغرق الذى أدركه ، ثم أصدر أمره إلى جميع البلاد التى فى حوزته بالتعبئة العامة بحيث لا يتخلف فيها إلا النساء والعجزة من الشيوخ والصبيان .

وبعد أيام جاء الموبذان وأرباب دولته ومشايخ النار يبشرونه بقدوم

إياس بن قبيصة نائبه على العرب ومعه قاتل ابنه هانئ بن مسعود ، فقال لهم : أحضروه بين يدى حتى أقتله وأشرب من دمه ! فقال له معبد بن حسان كبير الحكماء : ليس هذا بالرأى الذى تبلغ به ما تريد من الفتك بالنعمان الذى جحد بنعمتك وخرج عن طاعتك ، وشرد جندك وأعوانك، ومن سداد الرأى أن تتخذ هانئ بن مسعود سبيلا إلى خديعة النعمان حتى يقع فى يدك وتفعل به ما تريد ، فقال : أتمم مشورتك وبين لنا ماذا نحن فاعلون ، فقال : إذا دخل هانئ عليك فأحسن لقاءه ، وأسبغ عليه إكرامك ، واملأ قلبه أمناً وسلامة ، ثم دعه لى أتحدث إليه بما يحقق مرادنا ، ويوصلنا إلى هدفنا ، فقال الجالسون : هذا رأى سديد ، واطمأن كسرى وقال : فليحضر إياس قبل هانئ لنسأله كيف استطاع أن يأتينا بهذا الفارس الذى أفنى فرسان الديلم والعجم والعرب ، فجىء به وعرفوا منه القصة الآتية :

سمع ذو الحمار وهو فى طريقه إلى النعمان من العسكر المهزومة ما قالوه عن هانئ وشجاعته ، وتمزيقه جيش كسرى وحده ، فحسده على ما وصف به من الشجاعة والإقدام ، وغير وجهته إلى طلب هانئ فى أرض ذى قار ليقتله أو يأسره حتى لا يقرع أذنه اسم لفارس يفوقه ويكون له بين الناس هيبة أعظم من هيبته ، فجعل يسير وصحبه معه حتى

أشرفوا على أرض يقال لها الحرة . وهى فسيحة شاسعة تبعث الرعب فى صدور سالكيها ، وفى أثناء سيرهم فيها لاح لهم عشرة فرسان على جياد عتيقة كريمة ومن خلفهم ثلاثة عبيد يسوقون جمالا كأنها تحمل الماء والغذاء فقال لأصحابه : لنسأل هؤلاء القادمين عن شأنهم ثم نقتلهم ونسلب أموالهم التى تعيننا على ما نحن فيه الآن من سفر فى تلك الفيافى القاحلة الجرداء . فلما اقتربوا منهم صاحوا فيهم فوجدوهم ثابتين غير آبهين ولا مهتمين بمن قدموا عليهم وما سمعوا من صياح ، فقال ذو الحمار : يبدو لى أن هؤلاء أبطال ، ثم تقدم نحوهم فارس من أصحاب ذى الحمار وقال لهم : أخبرونا من أنتم فأجابه أحد فرسان هانئ : ما أعمى بصيرتك وما أجهلك وأقل خبرتك ! ! ! امضوا إلى شأنكم وانجوا بأنفسكم واحذروا فارساً سيفه رسول الموت ، ولتعلم أنى ناصح لكم. نحن فرسان واقعة ذى قار ومعنا هانئ ابن مسعود الذى هزم فى يوم واحد ألوفاً من العجم والعرب و بعثرهم فى الصحراء هائمين وقتل شرسان بن كسرى ، ولما فرغ من كلامه ابتدره ذو الحمار قائلا : إن كان معكم هانئ بن مسعود فقد نلت ما تمنيت ، وأدركت بغيتى التى لها سعيت ، ثم التفت إلى أصحابه وقال : إن أنا أخذت هذا الشيطان أسيراً إلى كسرى وقال لى اطلب منى ماتشاء قلت : اجعلنى ملكاً على العرب وأنا أحضر لك النعمان وبنى شيبان ، وأجعلك نافذ الكلمة مطاعاً فى قبائل العرب وأضم إلى ملكك بلاد الشام ، ثم تقدم نحو الفارس

الشيبانى كأنه يريد منه كلاماً جديداً وطعنه فى صدره فوقع على الأرض قتيلا ، وأراد هانئ أن ينتقم من ذى الحمار ورجاله ولكن أصحابه لم يمكنوه من ذلك وأبوا إلا أن يقوموا هم بأسرهم وإحضارهم بين يديه يتصرف فيهم بما يريد ضناً بسيفه أن يخضب بدمائهم ، وظن ذو الحمار أن قعود هانئ عن قتال رجاله احتقار لهم وعدم اهتمام بأمرهم لأنه أكبر من أن يلقاهم ويتحرك لقتالهم ، فأحب أن يلفت نظره إلى شجاعته ويرغمه على الاهتمام به فتصدى لرجاله وحده وجعلهم ما بين قتيل وجريح ومهزوم ؛ فأسرع هانئ إليه وقال : ثكلتك أمك ! ! من أنت ؟ ! وأية أرض ألقت بك ؟ فقال ذو الحمار : إنى من اليمن وجئت لأثأر منك ، إذ قتلت أخى وابن عمى فى واقعة ذى قار ، وما أنت بمفلت من يدى ، وسأقتلك فى هذا اليوم الذى سعدت فيه بلقائك . وقام القتال بينهما على أشده وما نال أحد من صاحبه نيلا ، ثم كانت منهما فى وقت واحد ضربتان قاتلتان ، أصابت إحداهما عاتق هانئ وأصابت الأخرى رأس ذى الحمار فوقعا على الأرض معاً فى شبه غيبوبة لا يقدران معها على الحركة . أما أصحاب هانئ فقد يئسوا وخافوا على أنفسهم فتركوه ملقى على الأرض وفروا إلى ديارهم ، وأما أصحاب ذى الحمار فقد حملوهما وساروا بهما إلى إياس بن قبيصة ، وفى أثناء الطريق انتبه هانئ فقال : أين أنا الآن ؟ ! ومن أنتم من العرب ؟ ومن ذلك الفارس الذى وقع بينى وبينه ما وقع ، ولو كنت لابساً درعى ما

استطاع أن يفعل بى شيئاً ؟ ! فقالوا : إنه سبيع بن الحارث الملقب بذى الحمار خرجنا معه فى طلبك ، ونحن سائرون بك إلى كسرى ليثأر منك لابنه شرسان الذى قتلته ، فعلم أنه قادم على التلف الذى لا يستطيع دفعه ، وبعد تفكير طويل قال لهم : إن أنتم أرجعتمونى إلى أهلى فلكم جميع ما أملك من المال ، وتكونون مع ذلك قد أحييتم نفساً وكسبتم عونى لكم أنا وعشيرتى مدى الحياة ، فقالوا : ذلك ما لا نفعله أبداً ، فإن النعمان قاتلنا إن ظفر بنا ، وهذا فارسنا ذو الحمار قد أيس من الحياة ولا ترضى أن يقول العرب عنا : إن بنى غزية قتل ابن عمهم وباعوا دمه بالمال ولا ترضى أن نكون بذلك سبة فى جبين العشيرة أبد الآبدين ، فلا تطمع منا فى الأمر المحال .

وفى الحيرة دخلوا على إياس بن قبيصة ووضعوا هانئ بن مسعود بين يديه ، وقصوا حادثه ، ففرح واستبشر ومنحهم العطايا والأموال ، ووكل ذا الحمار إلى أطباء يعالجونه فى خبائه الخاص وجعل لمن يشفيه منحة مقدارها ألف دينار ، والتفت إلى هانئ قائلا : أبشر فقد وقعت فى براثن الموت ، وكيف حالك إذا وضعتك بين يدى كسرى وسألك عن ابنه شرسان ؟ ! أما علمت أن الدهر قلب ؟ لقد تقلص ظل هناءتك وسطوتك ، وحلت عليك مذلتك وشقوتك ، فقال هانئ : لعن الله بطناً قذفك ، وصدراً أرضعك وساعداً حملك ، واعلم أنه إذا لم يكن قد حان أجلى فلن يستطيع

إنسان أن ينال منى ولو اجتمع على معونته أهل الأرض أجمعين . فقال إياس وقد غاظته إجابته : لولا أننى رغبت فى حملك إلى كسرى لضربت عنقك بسيفى هذا . وفى صبيحة اليوم الثانى من حضوره حمله إلى كسرى بالمدائن وحكى له ما وقع ، فأمره بالخروج ولينتظر حتى يأمر بإحضار هانئ ، ثم التفت إلى كبير الحكماء وقال : وبماذا تشير بعد أن قص علينا إياس ما سمعت ؟ فقال : إذا حضر هانئ فقربه منك وأوله عطفك وإحسانك ومحبتك ، واجعله نائباً على مملكة النعمان وقل له إنك أحق بالملك منه ، ونحن أجدر بولائك وعونك ، وأنزله من نفسك ورؤساء دولتك وأتباعك منزلا كريماً واطلب منه الملك النعمان ، فإذا ما اطمأن إلى هذه الحال ساق إليك النعمان سوق الجمال ، فثأرت منه لنفسك وشفيت غيظك دون أن تبرح مكانك أو يتحرك جندى من جنودك ، فرضى كسرى عن ذلك .

وفى صبيحة الغد جلس كسرى على عرشه وأمامه وعن اليمين وعن الشمال أكابر دولته والمقربون من حكماء أمته ، وأمر بإحضار هانئ بن مسعود ، فجاء به جنود غلاظ شدادومعهم إياس بن قبيصة ، فدعا إياس لكسرى بدوام العزة وقال : هذا قاتل ابنك شرسان وهازم جندك وناصر النعمان ، ساقته النار لساحتك لتذهب بقتله غيظ صدرك ، ونحن الآن منتظرون فيه أمرك . فتبسم كسرى ضاحكاً من قوله وقال : هذا الخبر

كسرى على عرشه وحوله كبار دولته ، وهانئ بن مسعود يغريه بإياس بن قبيصة

بلغنى من قبل ، وقد قلبته على وجوهه فلم أجد له من العقل سناداً : رجل واحد فى ثمانية آلاف يغلب مائة ألف فارس فى يوم واحد ؟ ! ! ذلك ما لا يصدقه عاقل ، ولئن صح هذا فلن يكون فى يوم واحد أو أيام بل فى شهور ، وأعوام ، أو عاونهم فى القتال جن الأرض وشياطينها ، ولقد سمعت فيما سمعت أنهم كانوا يرددون فى القتال اسماً جديداً حظى بعناية من رب السماء ، ومن الخطل أن يعادى الإنسان صاحب تلك الحظوة ، لأنه إنما يحارب الرب الذى لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض ، ولهذا قد عفوت عن هذا الفارس وغمرته بإحسانى وولائى ، وادخرته عوناً لى على نوائب الزمان ، وقد حاسبت نفسى فيما حل بى من تلك الهزيمة المنكرة التى ضاع فيها ابنى ، واندحرت جنودى وفقدت هيبتى فوجدتنى مخطئاً ، إذ أنى سمعت قول الوشاة وطلبت حريم النعمان ظلماً وزوراً ، فعوقبت بهذا الخسران المبين ، وإنى الآن أعلن توبتى وأستغفر من ذنبى وأعود إلى سنة آبائى وأجدادى من إقامة صروح العدل وصم الأذن عن الاستماع لوشاية حاسد أوحاقد . فأطلقوا هانئا من وثاقه ، واجعلوا له داراً خاصة يقيم فيها فى عيش رغيد ونعمة وفاكهة مما يشتهى وقد أصبح من المقربين إلينا ، الذين نعتمد عليهم ، ونحمل لهم فى قلوبنا كل محبة واحترام ، فقد رفع منزلته فى نفوسنا صدق جهاده ، واستماتته فى نصرة صاحبه ، وذلك خلق كريم ورجولة فذة .

وقد أبدى الحاضرون سرورهم وإعجابهم بهذا الموقف الحاسم الكريم الذى ظاهره فيه الحزم والحكمة ومجانبة الهوى والأثرة ، وباطنه من قبله الغدر والخيانة ، وعجلوا بتنفيذ ما أبرمه فى هانئ ، فبات ليلته فى داره يجرى عليه من ألوان النعيم والراحة ما لم يكن يتوقعه ، وكان معه معبد بن حسان كبير الحكماء فجعل يهنئه بذلك المصير السعيد ونجاته مما كان يخشاه ، وقال له : لا يكن عندك شك فيما سمعت من كسرى فقد تصدع الإيوان فى أثناء حربكم وخمدت النيران فاعتقد أنكم مؤيدون من رب السماء ، ولهذا فهو يحمى نفسه من عذاب الرب بإكرامكم والإحسان إليكم ، وجعل الحكيم يتحدث إليه حتى بات هانئ وليس فى صدره شية من ريبة فيما سمع من كسرى ، وحمد الله تعالى الذى عافاه وأعزه وأكرمه .

وفى الصباح دعاه كسرى إلى مجلسه ، فجعلوا يتحدثون ويأكلون والبشر يلمع فى وجوههم ، ثم سألوه عن مفارقته لبنى شيبان بعد القتال فقال : خرجت لإحضار نساء أخوالى فالتقيت بذى الخمار فى الطريق وكان ما كان ، ولو كنت لابساً درعى ما استطاع هو أو غيره أن يفعل شيئاً ، واستمر هانئ على هذه الحال عشرة أيام حتى شفى من جروحه ، فجعل يركب فى موكب كسرى ، ويحضر الميدان ، ويفصل بين الفرسان . وما كان يرى على وجه كسرى إلا دلائل السرور والابتهاج ، ولا يعلم أن قلبه يتحرق من الغيظ ، ولكنه يخفيه فى جلد عظيم .

وذات يوم انفرد كسرى بهانئ فى مجلسه ، وجرى بهما الحديث فى نواح متنوعة ، ثم قال له : لقد اصطفيتك لنفسى ، وعولت عليك فى شئون دولتى ، ولا أخفى عليك ما همنى وشغل بالى ، وشتت راحتى ، فالعاقل جدير أن يستشير من يرجو عنده النصيحة ويعتقد فيه سداد الرأى والإخلاص والمعونة ، ولقد أنبأنى رجال التجسس السرى أن ملك الروم علم ما حل بنا فى واقعة ذى قار ، فطمع فى بلادى ، وقطع الجزية السنوية عنى ، وهو الآن جاد فى تعبئة عامة ليغزونى فى عقر دارى ، وليس لى الآن من العرب نصير لموقف النعمان منى وخروجه عن طاعتى وقطع المناصرة بينه وبينى ؛ أما إياس بن قبيصة فهو كلّ علينا أينما أوجهه لا يأت بخير ، فليس لنا فيه نفع ولا غناء ، وأود أن تكون سناد ملكى وأن تحل محل النعمان فى ملكه ، وإنى أرى أنه إذا لم تكن معى أنت وبنو شيبان أهلك وعشيرتك فى قتال الروم غلبنا وضاع الملك من أيدينا ، فماذا ترى فى هذا ؟ فقال هانئ : ما من إنسان يكره أن يكون ملكاً ولكن صدق المشورة يجعلنى أقول : إنى لك قائداً خير من أن أكون ملكاً لا طاعة لى عند العرب لخلقى وغدرى ، ولهذا فالرأى عندى أن تصالح النعمان وتمحو ما بينكما من خلاف وتناكر ، فتكسب مناصرة العرب لك ، ووقوفهم بجانبك وقفة لا يستطيع ملك الروم أن ينال منها أو يزحزح من ثباتها ، واذكر ما بينكما من حسنات . وما بين أبيه وأبيك من عهد أبيض

غير مدخول ولا مخوف ، فأظهر كسرى ابتهاجه بما سمع ، وقال : ذلك حق فالنعمان لا يزال عزيزاً عندى ، وأعتقد أنه الآن نادم وغير راض عن موقفه منى ، ولكنه معذور فيه ، إذ كنت أنا السبب فى غضبته ، وقد كنت فكرت فى أن أصالحه ولكنى خشيت أن يخدعه انتصاره فيركب رأسه ويرد رسول السلام متعثراً فى أذيال خيبته وقد طلب إلىّ بعض ملوك العرب أن أجعلهم مكانه ، وأشدهم إلحاحاً فى هذا دريد بن الصمة وقال لى : سأجعل العرب والعجم بسيف صهرى ذى الحمار لك عبيداً وأسوق إليك النعمان وبنى شيبان سوق الأغنام ، وأعتقد أن ذا الحمار ما خرج للقائك إلا بأمر دريد ليتقرب إلينا ، ويتحقق غرضه منا ، ولكن القدر ساقك لحكمة عظيمة ، هى أن ترجع المياه إلى مجاريها ويعود النعمان كما كان ، وننسى ما فات ونصلح ما هو آت . على أساس من محبة وصفاء .

فقال هانئ : وحق نعمتك لو كنت مستعداً لقتاله لقتلته ، ولكن الله أراد ذلك لأحضر إليك وأكون سبباً فى إصلاح ما بينك وبين النعمان ، فقال كسرى : ذلك ما كنت أبغيه ، ويحسن أن تعجل بالعودة إلى أهلك ، فهم الآن على ما أعتقد فى قلق حار من أجلك ، فقال هانئ : ذلك ما جال فى خاطرى ، وقد حضرت اليوم عازماً أن أستأذنك لأنى على غير علم بما جرى لأهلى وللنعمان من بعدى ، فقال كسرى : إنك لوفىّ كريم ،

وسيكون سفرك غداً ، ثم أمر أن يمنح سرادقاً كبيراً من الديباج وخمسين بغلاً محملة من الأموال والهدايا ما يكفيه ويكفى عشيرته ، ثم ودعه وأمر أن يصحبه الموبذان وجماعة من الفرسان ، ووصاه ألا يقطع صلته به ، وأن يكثر من زياراته ، ثم سار هانئ ومن معه يطلبون أرض ذى قار .

٧

ونعود إلى الفرسان الثلاثة أصحاب هانئ الذين هربوا من ذى الحمار وجماعته ، فإنهم فروا إلى أهله وأخبروهم ما جرى بينه وبين ذى الحمار والمصير الذى انتهى إليه ، فحزنوا وحزن النعمان حزناً شديداً ، وقال بعضهم : لم يبق لنا قدرة على لقاء الفرس ، وخير لنا أن نرحل من هذا المكان ونعتصم برءوس الجبال فقال النعمان : لن نبرح هذا المكان حتى يعود إلينا سالماً ، أو نقيه شر أعدائه ، ثم أحضر الفرسان الثلاثة ليتأكد من صحة ما أخبروا وليزداد علمه وضوحاً بما حصل لعله يجد فيما يقولون باباً ينفذ منه إلى إنقاذه وتخليصه من شر أعدائه ، فأعادوا القصة كما وقعت ، فسألهم : هل عرفتم الفارس الذى التقيتم به ؟ فقالوا : ما عرفنا له اسماً ولا قبيلة ، ولكن الكفاح بينهما انتهى بضربتين قاتلتين ألقت بهما على الأرض كأنهما

ميتان ، ففررنا لننقل إليكم خبره ، ولو بقينا لهلكنا ، فلم يجد فيما قصوه شيئاً جديداً يغنيه ، أو يفتح له باب الأمل فى سلوك سبيل ينفع فارسه ، ولهذا أمر أن تنتشر العيون والجواسيس لتنقل إليه أخباره وما صار إليه ، وأخبار الفرس وما عقدوا العزم عليه فخرجوا يتجسسون ثم عادوا ولم يعرفوا شيئاً .

رأى النعمان وقومه شبحاً لعساكر قادمة إليهم من جهة العراق فظنوهم مرسلين من كسرى لقتالهم فركب فى جنده للقائهم ، وخشى هانئ أن يكون خروج النعمان للحرب كما زعم وتوهم ، فتقدم موكبه ماشياً على رجليه حتى يعرفه النعمان لأول نظرة فيجعل اللقاء أمناً وسلاماً وبهجة وسروراً ، وكذلك عرفه النعمان فنادى فى جنده : أبشروا فقد جاءنا هانئ سالماً معافى ، وبعد اللقاء والسلام رجعوا إلى الديار فرحين . وهناك جعل يحدث النعمان بما جرى له فى غيبته هذه ، وكيف استقبله كسرى وأكرمه وكيف ندم على ما فرط منه ، وكيف أخطأ واستمع للوشاة والكذابين ، وقال : إنه يعزك ويطلب الصلح بينه وبينك لتكون العلاقة بينكما كما كانت قائمة على الوفاء والتناصر ، فقال النعمان : إنك لقوى وفىّ أمين ، وقد غمرتنى بفضلك ، وأصلحت ما بينى وبين كسرى ، ولا أكون مبالغاً إذا قلت : إنى الآن مدين لك بملكى ، وأرجو أن يكون قول كسرى حقاً لا ريب فيه ، وأن يكون قلبه عامراً لنا بالوفاء ، فقال

الموبذان : وإنى لذاكر الآن آية صدقه فى قوله ووفائه لك : إنه فى أثناء غضبه عليك وقتاله إياك وقع هيكل معبده وانشق إيوانه وخمدت نيرانه وقتل ابنه فاعتقد أن هذه المصائب كلها من ظلمه لك واستماعه لمقالة السوء من الوشاة فيك ، فتاب واستغفر وعرف قدرك وأنك أخلص الملوك إليه وأقواهم له نصيراً . وقد بلغه أن ملك الروم يجهز جيشاً جراراً للقضاء عليه منتهزاً فرصة عدائك له ، فهو الآن أحوج إليك من أى إنسان؛ لأنه لا يستطيع أن يحمى نفسه من ملك الروم إلا بمعونتك ومناصرتك، وقد رجع إلى سيرة آبائه من العدل ومعاملة كل إنسان بما يستحقه ، وقد أرسل إليه دريد بن الصمة أن يكون ملكاً مكانك، وأفهمه أنه أرسل زوج ابنته ذا الحمار إلى هانئ ليقضى عليه أولا : ثم يلتفت إليك ويحاربك ، ولكن الأقدار سارت لصالحك ، فما رأيك بعد هذا فى كسرى ؟ فقال النعمان : ليس فى نفسى شك بعد الذى سمعته منك ، ولن يجد كسرى منى إلا خير عون ونصير ، وبالغ فى إكرام الموبذان ومن معه مدة إقامتهم .

وبعد سبعة أيام قال الموبذان للنعمان : لم يبق لك الآن حاجة إلى البقاء فى أرض ذى قار ، وأستحسن أن تعود إلى العراق لتقوم بأمور ملكك، فإن كسرى الآن فى انتظار الأخبار عنك حتى يطمئن ويستريح . فأمر النعمان بالرحيل وبدءوا حركة المسير فى صباح غدهم حتى وصلوا إلى العراق ، وعلم إياس بن قبيصة بقدومهم ، فاستعد للقائهم فى موكب

حافل من بنى طى وسلم إليه الحيرة وخزائن الأموال وأصبح النعمان ملكاً كما كان ، ثم عزم على أن يرحل إلى كسرى ومعه كبار دولته ليجدد عهد الوئام والسلام .

أما الموبذان فإنه سبقه، وأخذ معه ذا الحمار، وعاد هو وفرسانه إلى كسرى ، ولم يكن قد شفى ذو الحمار من جرحه فشكا إلى كسرى هانئاً فواساه، ووعده أن يقتله، ويقتل النعمان معه إن رجعا إليه وأكرم مثواه،

جمع كسرى رؤساء دولته وشاورهم فى أمر التعجيل بإحضار النعمان، وكيف يكون ذلك ، فقال كبير الحكماء : إنا تركناه واثقاً من قومك مطمئناً إلى مصالحتك ، وربما ساوره الخوف والحذر بعد أن فارقناه ، وصيد الحذر عسير ، فلا تعجل بإحضاره وأمهله رويداً ، واعلم أن معك رجالا يخبرونه على الفور بكل صغيرة وكبيرة ، فاكتم عزمك فيه ، وأعلن فى كل مناسبة أنك عفوت عنه وصالحته ، وأعدته إلى ملكه ، واتخذته لك عوناً ، فقال كسرى : هذا جميل، وأجمل منه أن تذكر لى هؤلاء الرجال الذين ينقلون أسرار الدولة إلى أعدائى حتى أطهر البلاد منهم بضرب أعناقهم، فإنى لا أستطيع الصبر على كل خوان أثيم ، فقال كبير الحكماء : وأجمل من هذا أن أدبر لك حيلة تقضى عليهم بيد النعمان وسيفه ، وتكون وسيلة جديدة إلى الوثوق بك ، والاطمئنان إليك ، كما تقرب أمد حضوره بين يديك ، وذلك أن تكتب إلى النعمان الكتاب الآتى :

« اعلم أيها الملك العظيم أنى جمعت رجال دولتى واستشرتهم فى أمرك وما كان بينى وبينك فكلهم ألحوا فى طلب الصلح والعفو عما كان ، وجعلوا يحمدونك ويثنون عليك . ويذكرون مفاخر آبائك ، إلا عشرة رجال منهم فإنهم هاجوا وماجوا وقالوا : إن النعمان خان العهد ونقض الميثاق ولا جزاء له إلا ضرب عنقه وصلبه والتنكيل بعشيرته وهم ... فأمرتهم أن يكتبوا بأيديهم ما به يشيرون فكتب كل منهم : أنا فلان ابن فلان ، أشير على الملك العادل كسرى أن يقتل النعمان ويصلبه وينكل بعشيرته ؛ لأنه خان العهد ونقض الميثاق » وإنى مرسلهم إليك لتحكم فيهم بما تشاء ، فإنى قد غضبت عليهم ، ولا أحب أن يكونوا هم وأمثالهم فى رجالى وحاشيتى ، ولقد أخفيت غضبى عنهم وجاريتهم فيما قالوا فيك حتى أتمكن من إنفاذهم إليك فى سهولة ، وأمر كسرى كبير حكمائه أن يكتب هذا محاكياً خطوطهم بأيديهم ثم أنفذه إلى النعمان مع من يثق به من رسله .

وقال كبير الحكماء متمماً حيلته : وبعد هذا أعلن فى الناس أيها الملك أنك رزقت ولداً ، وأقم سرادقاً كبيراً بجوار نهر دجلة وادع إليه الخاص والعام ، واغمرهم بكرمك وإحسانك ، ثم ادع هؤلاء العشرة وابعث معهم إلى النعمان الهدايا والمنح ابتهاجاً بابنك الجديد ، وكذلك فعل كسرى فأغدق العطايا ، وانتشرت فى البلاد معالم الغبطة ، وأوفد إلى النعمان العشرة ،

ووصاهم أن يصفوا له فرح البلاد وسرورها ، وألا يرجعوا إلا وهو معهم وإن كان مشغولا بجمع الجنود وتدبير ملكه فليتركوه ، فإن ذلك أنفع لنا ، لأننا قادمون على محاربة الروم الذين طمعوا فينا ، وعزموا أن يغزونا فى ديارنا ، ففرح الرجال العشرة ، وسعوا إلى أرض الحيرة والنجف ، وما دروا أن أقدامهم تسعى بهم إلى ما دبر لهم من تلف .

جمع النعمان ذوى الشورى من رجال حاشيته وقرأ عليهم كتاب كسرى الذى به أسماء الرجال العشرة وآراءهم المنسوبة إليهم ظلماً وزوراً ثم قال : أظنكم لا يساوركم بعد هذا الكتاب شك فى إخلاص كسرى ، وأننا أصبحنا عنده من الأصفياء المقربين ، حتى بعث إلينا بما جرى بينه وبين رجاله من الأسرار ، فقالوا : لا نرتاب بعد ذلك فى صدقه وإخلاصه ، وقال الوزير عمرو بن نفيلة : نفسى تحدثنى بأن فى الأمر شيئا — وأرجو ألا يعقبنا هذا الأمر أسفاً وحسرة ، فقال النعمان : إن خبرتى بالأكاسرة تجعلنى لا أرى فى هذا الأمر إلا كل خير وسلامة ، ولا تنسوا أنه الآن فى أشد الحاجة إلينا بما ينتظره من غزو الروم لبلادهم ، وهم لا يستطيعون ردهم إلا إذا كنا معهم وشددنا أزرهم .

وانفض مجلس الشورى ، وانتظر النعمان قدوم الرجال العشرة الذين سيذهبون ضحية المؤامرة الخبيثة الظالمة ، فلما جاءوه فرح بهم ولقاهم نضرة وسروراً ، وسألهم عن كسرى وأحواله فقالوا: إنه الآن فى فرح عظيم ،

والبلاد كلها تموج بهجة وانشراحاً ؛ لما وهب له الله من ولد أنساه أحزانه ، وبدل حالته ، فلا تراه إلا ضاحك السن براق المحيا ، وقد بعثنا إليك بهذه الهدايا أمارة اعتزازه بك ورضائه عنك ، وقد أصبح إيوانه كعبة القاصدين من كل صوب يهنئونه بولده السعيد ، فزادت ثقته بكسرى ، وعزم على الانتقام من هؤلاء العشرة ليلا ، وأسفر الصبح وهم مصلوبون على الأبراج ، ثم قال النعمان لهانئ بن مسعود : الآن وجبت علينا زيارة كسرى ، لتهنئته بمولوده ، ولنقف على مقدار ما هيأه من الجيوش لقتال الروم ، ولنخبره أننا قد أعددنا أنفسنا لمناصرته ، فقال هانئ : أصبح التعجيل بها واجباً ، وإن لم تكن إلا للتهنئة بمولوده ، فقد غمرنا بفضله ونعمته .

ولما تهيئوا للرحيل وصى قيس بن مسعود ابن أخته هانئاً فقال : لا أزال أرتاب فى أمر كسرى من النعمان ، ولا أكذب الحذر من أصحاب الدم وذوى الثأر وإن أقسموا جهد الأيمان ، ولهذا فإنى أوصيك أن تعسكر فى ألف فارس بظاهر مدينة كسرى ، وتترك النعمان ومن معه يدخلون عليه ، فإذا ما رأيت غدراً وقع النعمان فى حبائله فانج بنفسك ومن معك إن لم تستطع إدراك النعمان وإنقاذه ، فإن نار الثأر كنار الحقد لا تخبو أبداً ، وافهم عنى هذا ولا تجعله دبر أذنك ، فقال هانئ : سيكون ما أردت وبالله التوفيق .

عسكر هانئ فى ألف فارس فى ظاهر المدينة ، وما كاد النعمان وجماعته

يدخلونها حتى صدر أمر كسرى بالقبض عليهم ، وإحضار النعمان بين يديه ، فعلم هانئ صدق ما ظنه قيس ، وما لبث أن جاءه حجار بن عامر متنكراً فى زى الفرس وأمره بالرحيل لأن النعمان قد قتل ، وجنود كسرى يبحثون عنك .

مثل النعمان بين يدى كسرى فقال له : أين ابنى شرسان ؟ ! !

فقال : قتل أيها الملك ، وما فات شيئاً من عمره ، وهأنذا بين يديك فافعل ما تشاء ، فأمر أن يذهبوا به إلى الفيل المجنون ، وما كاد هذا يراه حتى أمسكه بخرطومه ورفعه إلى السماء ثم ضرب به الأرض ضربة كانت هى القاضية ، وجعل يدوسه بأرجله حتى كسر عظامه وهشمها وخلطها بلحمه وكان مصيره الفناء ، فلما رأى حجار هذا لبس خفية حلته الأعجمية ، وكان أهداها له كسرى سروراً بقدومه إليه بالنعمان ، وفر متنكراً إلى هانئ فأخبره بما جرى للنعمان وجماعته ، وأمره أن يسرع بالرحيل لأن كسرى طلبه ، ولما لم يجده بين أتباع النعمان أمر جنوده بالمسير إليه واقتفاء أثره إلى أرض ذى قار ، فهب هانئ وفرسانه سراعاً ، وركبوا طريقاً غير الطريق الذى جاءوا منه ، وجدوا فى المسير حتى وصلوا الحيرة ، وهناك التقى بقيس بن مسعود وأخبره أن النعمان قد قتل ، وقتل معه مائة فارس كانوا أتباعه ، وقد نفعنا رأيك فلا عدمتك من ناصح أمين عاقل ، وأرادت المتجردة وأسرة النعمان أن يقيموا المآتم والأحزان فأبى عليهم هانئ وقال : إن الأعداء فى أثرنا ولا بد من الرحيل الآن من الحيرة حتى لا نقع

فى قبضتهم ، وذاع الخبر وطبق الحزن أجواء الحيرة ، وما جاء الصباح حتى كانت أسرة النعمان : إخوته وأقاربه ؛ وهانئ وفرسانه من بنى طيء وبنى شيبان وجذام فى طريقهم إلى ديار بنى عبس .

وسأل هانئ قيس بن زهير عن عنترة لأنه لم يره فيمن رآهم من القوم ، فحكى له ما جرى وأخبره أنه مأسور فى بلاد الشام ، فعاتبه فى أمره وقال : كيف تعامله تلك المعاملة وتفرط فيه ؟ وقد اشتد غم قيس وحزنه ، لأنه فقد عنترة ، وفقد النعمان الذى كان اغتراره به سبباً فى التفريط فى عنترة ، وبعث هانئ إلى بنى غطفان فأحضر عبلة ومن معها من النساء ووعدهن أن يدبر حيلة يخلص بها عنترة عاجلا ، ووصى قيس بن زهير أن يستعد للقتال ويكتب لحلفائه بالاستعداد معه إذا ما هاجمه الفرس ، فربما جدوا فى طلبى ومن معى من أتباع النعمان ، وجاءونا فى دياركم وشنوا غارة شعواء قد تكون وخيمة العقبى .

أما إياس بن قبيصة فإنه خرج فى فرسانه يقتفى أثر هانئ حتى وصل الحيرة فلم يجده ، ولم يجد أحداً من أتباع النعمان وأقاربه ، فسأل عنهم فقيل له : إنهم رحلوا إلى أرض الحجاز ، وربما لحقت بهم إن تبعتهم وأسرعت فى مسيرك ، لأنهم سائرون على مهل رفقاً بمن معهم من النساء ، فقال إياس : وكيف أعرض نفسى وجندى إلى الخطر وأتبع فارساً قتل ثلاثين ألفاً فى يوم واحد ، ووضع يده على الخزائن وكتب إلى كسرى

يقول : وصلت إلى الحيرة ولم أجد هانئا ولا أحداً من أتباعه وأتباع النعمان ، وقيل : إنهم رحلوا إلى أرض الحجاز ، فإن رأيت أن أتبعهم فابعث لى من عندك بجنود يعاونونى على قتال هانئ بن مسعود ، وإنى فى انتظار رأيك والسلام .

فكتب كسرى إليه : لقد حاق بنا من الأمور الجسام ما يجعلنا نصرف وجوهنا عن متابعة نساء النعمان وأقربائه ، ومحاربة هانئ بن مسعود وأتباعه ، وذلك أن ملك الروم كتب إلينا أن نرد إليه الأموال والهدايا التى أرسلها لى ولآبائى من قبلى فى الأعوام السالفة ، وأن أبنى له بجوار بيت النار كنيسة ضخمة يعبد فيها المسيح ، وألا أرفع علماً إلا وعليه اسم المسيح عيسى بن مريم وصورة الصليب ، وإن لم أفعل ما أمرنا به أرسل علينا جنوداً لانحصيهم عدا ، ولن تستطيع قوة فى العالم أن تأخذ منهم مأخذاً ، أو تصيب فيهم رداً ودفعاً ، وقد أسأت إلى رسوله فقطعت أذنيه ثم أطلقته ليعود إليه ، وهو لا بد زاحف علينا بجنوده ، ولهذا وجب أن تجمع من عندك من الجنود وتأتينى سريعاً . لأستعين بك على لقاء العدو الزاحف قبل أن يطأ أرض العراق .

فلما جاءه كتاب كسرى جمع جنوده من كل قبيلة وحى ، وسار إلى كسرى ففرح به وجعله رئيس الجند العرب الذين وفدوا إليه ، وما لبث غير قليل حتى جاءت جواسيس كسرى من الشام قائلة : لقد نفر الحارث

ملك بنى غسان فى مائة ألف من الإفرنج والروم ، يقصدون العراق ، ليعيد إلى ملك الروم ما ضاع منه ، فاهتم كسرى لهذا النبأ وجعل رستم بن مهران الفارس الجبار على رأس مائتين وعشرين ألفاً من العجم والفرس والديلم ، وجعل إياس بن قبيصة على طوائف كثيرة من العرب ، وسار جميعهم سير السحاب ، لهم رعد يزلزل الأرض ، ولهم برق يتلألأ وسط الغبار تلألؤ النجوم الزواهر فى الليل الحالك .

٨

دبر سنان بن أبى حارثة شيخ بنى فزارة المكيدة التى صاد بها عنترة وفرسانه وذهب بهم إلى الحارث فى دمشق ، ففرح وتحرك الغيظ فى صدره من عنترة ، وجعل يضربه بالسوط وهو محبوس فى قيوده وأغلاله ، فقال : أما تخجل أيها الفاجر ؟! لو لم تكن عاجزاً وضيع النفس جباناً ما ضربت أسيراً فى قيوده ، وإن كنت شجاعاً ذا نخوة فبارزنى وأنا أذيقك الهوان والذلة ، واعلم أن مثلى لاينبغى أن يضرب بالسوط ، ولكن بأطراف الرماح وشفار السيوف ، أما السوط فلمثلك من العجزة الجبناء الأنذال ، فاغتاظ الحارث وقال : سأعذبك العذاب الأليم ، ثم أقطع من جسمك كل يوم عضواً وأرميه للكلاب ، ولكن بعد أن أستشير فى أمرك ملك الروم .

وفى الغد كتب إليه : لقد ظفرنا بأسر العبد الحجازى المسمى عنترة وأسر مائتى فارس معه ، وقد عولنا على قتلهم لنستريح ونثأر لأنفسنا من زعيمهم ، ولكن رأينا أن نستشيرك فيما نفعله بهم ، وإنا لمنتظرون رأيك فيهم والسلام .

وكان ملك الروم قد بلغه نبأ هزيمة ملك الفرس فى أرض ذى قار وأن ثمانية آلاف من العرب هزموا أربعمائة ألف من العجم والفرس والديلم . فطمع فى غزو الفرس وامتلاك أرضهم ، وألح عليه الطمع والتفكير فى هذا الأمر حتى رأى فى المنام أن أحداً يقول له : اشدد عزمك فإنى سأمدك بجنود تذل بهم عباد النار وتناصر عباد المسيح ، واحرص على أن يكون لك من عرب الحجاز جنود فهم تملك ما تشاء من البلاد ، وبسيوفهم تقطع رقاب الأعداء ، فقص على القسيسين والرهبان رؤياه ، فقالوا : سيأتيك من الجزائر مراكب تحمل كثيراً من الجنود يقودهم سبطرى الذى خرج للتبشير بالمسيح والدعوة إليه ومحاربة أعدائه . فإذا قدموا فلا تقعد عن الغزو ، وسيكونون أنصارك وأعوانك . فلما قدم سبطرى أخبره قيصر برؤياه ووعده أن يزوجه ابنته إن فتح البلاد وأبلى بلاء حسناً فى الجهاد . فقال : وحق من بشرك بقدومى فى مقامك ما خرجت إلا للدعوة للمسيح غير راغب فى عرض الدنيا وزينتها . فإذا ما أديت رسالتى فسيكون لى الخيرة فى أمرى ، فإما أقمت فى تلك الديار وإما رجعت إلى الجزائر التى

أتيت منها ، فقال : لك أن تختار ما تشاء ، فاسترح أنت ورجالك حتى أبعث إلى الفرس رسولا يطلب إليهم رد الأموال والهدايا التى أخذوها منا والدخول فى طاعتنا فإن استجابوا لما طلبناه عفونا عنهم وإلا قاتلناهم ، وبعث الرسول ورده كسرى مقطوع الأذنين ، فاغتم لما فعل برسوله وأخفى عن سبطرى أمره ، وبعد هذا جاءه كتاب الحارث ينبئه بأسر عنترة وفرسانه ويستشيره فى قتلهم ، فعقد فى الحال مجلس الشورى من خاصته ، واستشارهم فيما احتواه كتاب الحارث ، فقالوا : كيف تقتلهم وقد جاءك المسيح فى المنام وأمرك أن تأخذ لك من الحجاز أنصاراً وأعواناً ، فاصبر عليهم قليلا وأمهلهم حتى يتبين الأمر ، فاستحسن رأيهم ورضى عنه . وسير الجيوش ووصى سبطرى أن يخبر الحارث برؤياه وأن يحافظ على عنترة وفرسانه الأسرى تنفيذاً لوصية المسيح .

ولما تلقى عنه الحارث الوصية حزن وقال : لو علمت أنه سيبقيهم ما استشرته ولعجلت بقتلهم وصلبهم ، ثم جعل يصف عنترة بالشجاعة ، ويذكر طرفاً من بطولته . وأنهم لم يستطيعوا أسره إلا بالحيلة والمكيدة، فأثار هذا القول انتباه سبطرى وقال: يا حارث، لعل أرضكم خالية من الفرسان، لأنك وصفت هذا الشجاع بما لا يخطر على بال، فقال الحارث إنه ليس له فى الشجاعة نظير ، ولولا حبائل مكرنا ما أسرناه، ثم حدثه عن بنى فزارة، وقال فى آخر حديثه : لقد أقاموا فى أرض الشام واعتنق كثير منهم دين

المسيح، فقال سبطرى: لقد صدقت رؤيا ملك الروم فقد أوصاه فيها المسيح أن يختار أعوانه وأنصاره من عرب الحجاز ، والآن أحب أن أرى ذلك الشجاع الذى وصفته، وأن يخرج إلى الميدان لنقف على مبلغ قوته وشجاعته، فقال الحارث : أما رؤيته فميسورة متى شئت ، وإما إطلاق سراحه فذلك ما لا يمكن أن يكون لأننا لم نقبض عليه إلا بالحيلة والمكيدة ولولاها ما وقع فى يدنا ، وأخشى أن نطلقه فلا نستطيع إرجاعه إلى الأسر وربما أصاب جندك بالأذى ، فهو من الخطورة كأنه الموت أو أشد، ولا يصح أن نفتح على أنفسنا بإطلاقه أبواب المتاعب والشقاء ، وفى الصباح تأهب سبطرى للرحيل ورغب أن يرى عنترة قبل أن يأذن للجند بالمسير ، فدخل عليه ومعه جماعة من البطارقة فقال له الحارث : كيف ترى ما أنت فيه يا ابن شداد ؟ فقال عنترة : أرى رجولة أصابها القدر ، وحكم فيها أعجز البشر، فقال الحارث : إنك الآن أمام سبطرى ملك الإفرنج فى البحار ، بعثه ملك الروم بجيش جرار لمحاربة الفرس عبدة النار ، وللتبشير بدين المسيح، فالزم الأدب أمامه ، فلعله يشفع لك عند ملك الروم ، فقال : دع عنك لغو القول ، ولا تغرنك مصالحة الأيام، فما بعد بياض النهار إلا سواد الليل، والبدر لا يدرج إلا فى حجر من الظلام . واعلم بأن الموت نهاية كل حى ، ولكل أجل كتاب ، والموت عن حياة حافلة بالشجاعة والكرم خير من الموت عن حياة ملوثة بالفجر والمخافة واللؤم ، ولن ترى فى عنترة خوفاً من

أحد ، فإن رغبتم فى مواقف المروءة فدونكم وفك الرقاب وحل الوثاق، ولا تذهب بك الظنون فى مذاهب غير ما سمعت ، وأنا عنترة بن شداد الذى لن يغلبه فى أشد المعارك أحد من العباد، فأعجب سبطرى قول عنترة ووصى الحارث أن يبقيه حتى يعود من المعركة إليه ، ثم سار الحارث وسبطرى فى خمسمائة ألف مقاتل حتى التقوا بجيوش الفرس وفيهم إياس بن قبيصة ورستم قائد العجم عند الجبل الطويل ، وهناك استعرت نار القتال ثلاثة أيام كانت الغلبة فيها للروم ، وفى ليلة اليوم الرابع اجتمع إياس ورستم وخاصتهم يفكرون فيما يفعلون ، فاتفقوا على أن يخوضوا فى غدهم المعركة مستميتين ، فإن لم يفوزوا اعتصموا بالجبال وطلبوا المعونة من كسرى ، واستمروا على مناوشة الأعداء حتى يأتيهم المدد الذى طلبوه ، وفى الصباح كانوا معتصمين بالجبال ، وبرزت طوائف النصرانية تطلب القتال ، فنزلت طوائف كسرى من معاصمها والتقت الصفوف وجيوش كسرى على حذر وخوف ، ولكنهم ما لبثوا أن رأوا فى الميدان فارساً طويل القامة مفتول العضلات على جواد أدهم ، وصاح فى جيوش النصرانية صيحة كلها نذير ، فهجموا عليه بسيوفهم هجمة عنيفة ولكنه ثبت ولم يتزعزع ، وجعل يتصيدهم بسيفه من الأمام وعن اليمين وعن الشمال حتى شتت الشمل وفرق الجمع وخلا الميدان إلا من جواده الذى يمتطيه ، فنادى بصوت يدوى فى الأسماع : أين الحارث الذى لا يرعى حقًّا لقرابة ؟! بخلت علىّ

بابنتك وسقيتنى مرارة الحرمان فأبشر الآن بالدمار وهلاك من تعتمد عليهم من الأنصار وإن كنتم فى ريب مما أقول فأخرج إلىّ فرسان الأفرنج وبنى غسان وفزارة وسترى ما يحل بهم من ثبور كثير . فعجب الفريقان أن بغتوا بمن غيَّر المجرى وملك ناصية المعركة وقال إياس بن قبيصة : يا بنى الأعمام، لقد أحسن إلينا هذا الفتى ، فقد عصمنا ودحر الأعداء بشجاعته ، فادعوه فى أثناء هذه الهدنة لنقف منه على قصته .

وكان هذا الفتى أبا الدوح بن بسام وابن أخى الحارث مات أبوه وهو طفل صغير فكفله عمه الحارث وأخذه بضروب الفروسية وفنون القتال حتى بذ الأقران ، وكان لعمه هذا بنت تدعى حليمة ، نشأت معه ، وألفها طفلا وشابًّا ، وفاقت أترابها حسناً وملاحة، ولما كبرت حبسها عنه أبوها، فزاد شغفه بها ، وكان يبعث رسوله إليها برسائل المحبة والشوق إلى رؤيتها فتشتمه وترده يتعثر فى أذيال خيبته وتحقيره لأنها كانت نصرانية متبتلة وليس فى شريعة النصارى حينئذ زواج بنات الأعمام بأبناء الأعمام ، فأغلقت لذلك باب الاتصال بينها وبينه وشكته إلى أبيها قائلة : إنى مفضية إليك بأمر خطير ، خشيت أن أحبسه فى نفسى فيذيع وينتشر ويطرق سمعك من أفواه غير فمى ، فتعاقبنى أو تقتلنى لأنى لم أبلغك نبأه فى حينه، فقال : وما ذاك يا بنيتى ؟ ! ! فقالت : إن أبا الدوح ابن أخيك يكتب إلىّ برسائل الشوق والمحبة ، ولم يصرفه عن فعلته هذه ما أصبه على رسوله

كل مرة من شتم وتوبيخ وتحقير ، وإنى أخشى الفضيحة والعار ، وهذا أمرى وضعته بين يديك . فالتهب صدره غيظاً من ابن أخيه فأمر بحبسه فى أخس مكان يلقى فيه ألوان الذلة والهوان . ولبث فيه عدة شهور حتى شفع فيه أكابر دولته فأطلق سراحه ، ولكنه لم يزل هائماً فى حبها ، وحبس وعذب من أجل ذلك مرات عدة ، ثم أصر على أن ينتقم من عمه ، فاندمج فى عساكر الإفرنج ليظهر فى حومة الوغى بغتة ، وفى صفوف أعداء الحارث عمه ، وكان منه ما قرأته ، ففرح إياس بن قبيصة به وقال له : إنا لشاكرون لك جميل عونك وقهر أعدائنا ، فاطلب ما تشاؤه منا ، فهما نقدم لك من خير فلن يفى بمعروفك ومناصرتك لنا ، فقال : لا أبتغى من دنياى إلا ابنة عمى حليمة ، فلها أحيا وفيها أموت فقال إياس : إن فزنا على أعدائنا فإنا مناصروك على نيل بغيتك وإن بذلنا فى سبيلها المهج والأرواح ، ثم استشاروه فى استئناف القتال فقال : سأكفيكم قتالهم اليوم ، وسأخرج إليهم وحدى ، فإن رأيتموهم قد غلبونى فاحملوا عليهم وسيكون النصر لكم .

وقد عتب الحارث على أكابر دولته الذين شفعوا عنده فيه حتى أخلى سبيله من سجنه فقالوا : لا تبتئس بما كان وإنا رادوه إليك وجاعلوه من الأسرى إن لم يكن من المقتولين .

ولما توسط أبو الدوح ميدان القتال برز إليه فارس ضخم الرأس أفطس الأنف واسع العينين ، واسع الفم ، قصير العنق ، ثقيل الظل ، كئيب المنظر ، وكان

هذا الفارس شوبرت البحرى ابن عم ملك الجزائر ، فأرسل إليه الحارث يقول له : إن الفتى الذى برزت إليه ابن أخى فإذا ظهرت عليه فلا تقتله ، وأحضره أسيراً ؛ لأقوم بتعذيبه جزاء بما عقنى واتبع هواه ، فوعد شوبرت رسول الحارث بذلك ، وبدأ القراع بينهما وجعل يشتد ويقسو حتى أرهب الفريقين ثم أصابه أبو الدوح فى نحره بسنان رمحه فسقط عن جواده قتيلا . ثم أخذ يقارع فارساً بعد آخر وهو يغلبه حتى جاء الليل وكان قد قتل من فرسان الأعداء خمسة عشر ، ثم عاد مزهواً ظافراً إلى جيش كسرى ، فأوى إلى سرادق ضخم أعده له إياس ، وجهزه بكل وسائل الراحة وجعل تحت أمره خمسة عشر جواداً عربياً كريماً يمتطى منها مايشاء فاستراح فيه ونام حتى طلعت الشمس ، ثم ركب جواداً كأنه البرق فى سرعته وظهر بين الفريقين منادياً من يبارزه من الأعداء ، فبرز إليه الفرسان فارساً بعد آخر ، وهو يقتلهم حتى انتصف النهار وامتنع الفرسان عن أن يبرزوا إليه فهم بالرجوع إلى جيش كسرى ولكن طوائف من بنى فزارة والعرب المتنصرة أرادت أن تأخذه على غرة وأن تضربه ضربة رجل واحد فهجموا عليه كأنهم سيل جارف فانفلتت صفوف كسرى من مواقفها سراعاً كأنها كسف من السماء والتحمت جيوش الفريقين واستعرت نار القتال فلا ترى إلا سيوفاً صاعدة هابطة ورءوساً تتساقط تساقط أوراق الشجر وسط غبار كثيف ، وجعلت المنايا تحصد الأرواح حصداً حتى جاء الليل ، وعادت كل طائفة

إلى معسكرها مرتقبة ضوء الصباح الباكر لاستئناف القتال .

وجلس إياس بن قبيصة فى سرادق هو وأبو الدوح وجماعة من خاصته ثم قال : لولا أبو الدوح وكفاحه المجيد ما استطعنا أن نقف فى وجه الروم ساعة لقربهم من بلادهم وكثرة الشجعان فيهم وتتابع المدد إليهم وقد غمّ علىّ أمر غلبهم وضاق صدرى بهم لكثرة عددهم وتوالى وصول المدد إليهم ، فقال أبو الدوح : لا يكن لليأس سبيل إلى صدرك ، فإنى بحيلتى وشجاعتى أستطيع أن أهلك أمثالهم فقال : وما دبرت من الاحتيال يا ابن الأمجاد؟ فقال أبو الدوح : اختر لى ألفى فارس شداد من العرب والعجم والديلم أنسل بهم فى جنح الليل إلى دمشق فأقتل نائب الحارث ، واستولى عليها ، وأمنع المدد عن جيش الروم الذى إذا ما بلغه ذلك انحلت عزائمه وجاءه الاضطراب والخوف من كل مكان ، وحلت به الهزيمة والاندحار ، فوجد إياس ورستم وخاصتهما فيما دبره أبو الدوح خير علاج للتنفيس عنهم والتغلب على أعدائهم ، وفى منتصف الليل تسلل أبو الدوح وجنده فى المسالك البعيدة عن جيش الروم حتى لا يشعر بهم أحد من أعدائهم ، وأخذ معه كثيراً من البيارق والصلبان لاستعمالها فى حيلته ، ولما قرب من دمشق أوقف الجند ، وقال فيهم : سأعرض عليكم حيلة دبرتها وتجعلنا نملك دمشق ورجالها فى أقرب فرصة وأيسر سبيل ، وذلك أن نجعل من فرساننا الأعجام أسرى ونحملهم على الخيل موثقين ، ونشرف على المدينة بهم

رافعين البيارق والصلبان ، ونقسم بقية الجند قسمين : قسم يصحب الأعجام الموثقين ، وقسم يتسلل إلى دمشق ، فإذا ما أشرفنا على المدينة وركب نائب عمى فى رجاله للقائنا اعتقد أننا من جند الروم ورجعنا بالأسرى منصورين ، فاطمأنوا إلينا ، وأخذوا يسألوننا عن أخبار الجيش ، وكيف انتصرنا ، وحينئذ نقتل نائب الملك ورجاله فى الوقت الذى يقوم فيه الجند المتسللون بالاستيلاء على المدينة ، ثم نفك وثاق الأسرى وندخل دمشق سراعاً لمعونة فرساننا الآخرين ، وبذلك يتم لنا الأمر دون عناء فى زمن قصير ، فقالوا تلك أنجع وسيلة لانتصارنا دون أن تراق دماؤنا .

وطار خبر قدومهم إلى حامد بن حفيظ نائب الحارث فخرج فى ثلاثمائة فارس إليهم ، وظهرت له البيارق والصلبان والأسرى فقال : هزمت جيوش كسرى وجاءنا فرسانهم أسرى مصفدين ، وتبين قائد الجيش القادم فإذا به أبو الدوح فأسرع إلى لقائه ، ومظاهر الفرح والاطمئنان تبدو فى وجهه ، فقال : لله درك يا أبا الدوح ! ! بشرنى فأثلج صدرى ! فقال : أبشر يا حامد ، فقد هزم عمى جيش كسرى هزيمة شنعاء ، ففروا من وجهه ، وهو الآن فى آثارهم ليملك ديارهم ، وقد جئت الآن لأبشركم بانتصارنا الباهر ، ولأضع عندكم هؤلاء الأسرى وهم من أبطال العجم والديلم ، وقد أمرنى عمى أن أجمع رجال الشام وأعود بهم إليه ليتمم ما عزم عليه من امتلاك الديار والقلاع وقطع دابر الأعداء ، ولم يكد يتم كلامه

حتى سل سيفه وضرب به عنق حامد ، وحمل فرسانه على رجاله فأبادوهم وما نجا منهم أحد ، وأسرع هو وفرسانه إلى دمشق لمعونة القسم الآخر المتسلل بعد أن أطلقوا الأسرى من قيودهم ، وهناك أعملوا سيوفهم فى أهل دمشق حتى كانوا بين قتيل وجريح وهارب ، وملكوا المدينة ، ونادوا باسم كسرى ملكاً عليها.

وعلمت بذلك حليمة فجزعت جزعاً شديداً وهمت أن تقتل نفسها بسيفها ، فمنعتها أمها ، وقالت : اليأس خطة العاجز ، والنفس أغلى ما يملك المرء فى حياته ، والتسليم فيها لأول بادرة من بوادر الجزع جهل وجبن عظيمان ، فتجلدى لنوائب الزمان ، وسأدلك على أمر فيه نجاتنا ونجاة المدينة وأهلها ، فقالت : وما ذاك يا أماه ؟ فقالت : أن نجمع من فى القصر من السيدات والجوارى ونذهب إلى هؤلاء الأسرى فى قيودهم ونحن باكيات كاشفات عن وجوهنا ورءوسنا مرسلات شعورنا ، وتمسك كل واحدة منا بذيل أسير ، ونقص عليهم ما أصابنا ونستجير بهم لينفسوا عنا كربتنا ونضمن لهم الخلاص من أسرهم ورجوعهم إلى أهليهم سالمين غانمين ، فإنى قد سمعت أباك الحارث يصفهم بالشجاعة النادرة وبخاصة زعيمهم عنترة ، فلاح فى قلب حليمة بريق أمل فى النجاة واطمأنت إلى رأى أمها ، وكان الأسرى قد سمعوا صياحاً وبكاء لا يعرفون له سبباً ، واجتمعت نساء القصر جميعهن ودخلن فى حالة يرثى لها على الأسرى فى معتقلهم ، فلما رآهن عنترة على تلك الحال الأسيفة وكان شديد الغيرة

على النساء نكس رأسه وغض طرفه وقال : استرن رءوسكن أيتها النساء واسكتن عن البكاء واقصصن علينا ما أزعجكن وأذهب الطمأنينة عنكن ، فقصت عليه حليمة القصة برمتها من أولها إلى آخرها ، وأعلمته أن أبا الدوح ما فعل هذا إلا من أجلها ، وطلبن المعونة منهم على أن يضمنّ الفكاك من الأسر لهم ، فقال عنترة : إن الكرام لا يريدون لما يعملون من معروف جزاء ولا شكورا ، ولا تذهب أنفسكن حسرات على ما أصابكن ، ففككن وثاقنا وأحضرن لنا الخيل والسلاح . ثم قرْنَ فى مساكنكن آمنات فلن يصيبكن أذى ، وسأكشف عنكن هذه الغمة فى لمح البصر ، ثم نعود إلى معتقلنا كما كنا حتى يعود الحارث ، فجعلن يجمعن بالليل ما يحتاجون إليه من آلات القتال حتى أسفر الصبح ، فلبسوا الدروع ، وتقلدوا الأسلحة ، وأمر عنترة رجال القصر ورجاله أن يعتصموا بالسكون والهدوء ومجانبة الصياح وإن امتلأ القصر برجال الأعداء ، وأمر رجاله أن يسكتوا عن الأعداء حتى يحتويهم القصر ، ثم يهجموا عليهم هجمة تدمرهم ، ولا تبقى منهم أحدا .

وفى ذلك الصباح هجم أبو الدوح ورجاله على القصر ، فكسروا بابه وتدفقوا إلى ساحته يبغون نهب الأموال ، وسبى من فيه من النساء ، فتركهم رجال عنترة حتى امتلأت الساحة بهم وفى مقدمتهم أبو الدوح يقول : أبشرى يا حليمة بالسبى والمذلة ، ثم صاح عنترة فى رجاله أن هبوا لإبادة هؤلاء الحشرات ، ولا تبقوا منهم أحداً ينشق نسيم الحياة ، فأخذت سيوفهم

تحصد رءوسهم حتى أفنوهم جميعهم وأبو الدوح فيهم ، ثم خرجوا من القصر يتعقبون بقيتهم ليقتلوهم فلم ينج أحد من القتل إلا من لاذ بالفرار والهرب ، أما النساء فقد صعدن إلى سطح القصر وجعلن يقلن فى أصوات مرتفعة : أبشروا يا أهل دمشق فقد انكشفت الغمة ، وقتل عنترة أبا الدوح وأتباعه.

وطار عنترة ورجاله من خلف الهاربين حتى تفرقوا فى البيداء مشردين ، وبعد أن انتهى من قتاله وجهاده ، جمع رجاله ليرجعوا إلى دمشق ، فأشار عليه بعضهم أن يفروا إلى ديارهم فقد أصبحوا طلقاء ، فقال عنترة : ورب الكعبة لا نغدر بالنساء ، ولا بد من العودة إلى معتقلنا حتى يأتى الحارث ، ويفعل بنا بعد ذلك ما يشاء ، ولما رجعوا إلى القصر وجدوا نساءه قد لبسن ثياب الملك ، وعلت وجوههن نضرة النصر ، واستقبلنهم بكل مظاهر البهجة والاحترام ، وجعلت حليمة لهم داراً خاصة يقيمون فيها مكرمين منعمين حتى يرجع إليها أبوها الحارث ، وقالت لهم : نحن مدينون لكم بأنفسنا وأموالنا وديارنا ، فلولا شهامتكم وشجاعتكم وسيوفكم ما كان لنا وجود وسأضمن لكم من والدى خير الجزاء . فقال عنترة : ما فعلنا هذا إلا بما فطرت عليه نفوسنا من محبة للواجب والمروءة والمثل العليا للإنسانية الكاملة ، ولسنا طامعين فى شىء من متاع الدنيا وزينتها ، فشكرت لهم جميل مروءتهم وتركتهم فكهين بما هم فيه من نعيم .

وفى صباح يوم جاء حليمة جماعة من حرس أسوار المدينة وأخبروها أنهم

رأوا غبارا لجيش قادم فظنت أنه لأبيها وخرجت مسرعة فى فئة من الجنود إلى لقائه ، وقد صدق ظنها والتقت بأبيها وقصت عليه ما فعل بالمدينة فى غيبته .

اختفى أبو الدوح من الميدان ، فسأل الحارث أسرى الروم الذين خلصهم من يد أعدائهم عن سبب اختفائه ، فقالوا سمعنا ونحن فى الأسر أنه سار على رأس جيش إلى دمشق ليحتلها ، ويقتل حاميتها ، ويقطع عنكم المدد الذى يأتيكم من حين إلى حين ، فخاف الحارث على ابنته وأسرته ومدينته ، وأيقن أنه إن ملك دمشق فقد ملك الشام . فبلغ سبطرى ما فعله أبو الدوح وقال : أرى أن أرجع إلى دمشق لعلى أدركها ولما تمزق . وأن تعكف على محاربة الأعداء حتى أعود إليك ، وليس عليك ولا على جيشك أى خوف . فقد ضعف العدو ، وأصبح فى حالة لا يستطيع معها أن يدافع عن نفسه . فقال سبطرى : اذهب أنت وأدرك المدينة . وسأقوم بمحاربة العدو فى غيبتك ، وربما رجعت فوجدتنى قد قضيت عليه . ثم ودعه وسار حتى التقى بابنته حليمة .

كبر عنترة فى نفسه لمروءته ، وعلو نفسه ، وعظيم نخوته ، وقال : لقد فعل هذا الرجل بنا من المعروف ما أعجزنا عن مكافأته ، ثم دخلوا المدينة قاصدين عنترة وجماعته ، فحيا وسلم ، وقال : شكراً لكم يا سادات العرب ، فقد أحسنتم إذ أسأنا ، وغمرتمونا بمعروفكم وأغلالنا فى أيديكم وأرجلكم . ولا زلت طامعاً فى معونتكم ، فإنى أخشى أن يغلبنا جيش الفرس . فلو

أتممتم فضلكم وذهبتم معنا لمناصرتنا فى الحرب القائمة بيننا وبين كسرى
زدتم فضلا على فضل ، فقال عنترة : سر بنا أينما أردت ، وأبشر بهزيمة
كسرى ، وهلاك قائده إلا أن يكون النعمان ، فلا ينبغى أن نخونه ، لأنه
صهر لمليكنا قيس ، وبيننا وبينه ود قديم ، فعلم الحارث أن عنترة لم يبلغه
قتل النعمان غيلة وغدراً فقال : إن كسرى قد خدع النعمان وخانه ،
وقتله قتلة شنيعة ، والذى أتى على جيش كسرى لقتالنا إياس بن قبيصة
وقد كدنا نقضى على جيشه لولا أبو الدوح ابن أخى الذى عرفت قصته .

فغلى صدر عنترة حزناً وخوفاً على بنى عبس أن يكونوا قد ذلوا وضاعوا من
بعده ومن بعد النعمان صهرهم وناصرهم ثم قال : ما أشأم هذا العام على
الفرس وملكهم ! ! ورب البيت لأجعلن بلادهم خراباً بلقعاً لا ترى فيها أثراً
لأعجمى . يا حارث ! هيا بنا إلى الرحيل ، وبشر قومك بالنصر المبين ،
فقال الحارث : سيكون الرحيل غداً ، ثم أحضر لهم ألوان الأطعمة والشراب
فى صحاف وكئوس من ذهب وفضة ، وأكل معهم وجعل يتحدث إليهم
ويؤنسهم حتى حان موعد النوم فودعهم إلى أن يلتقوا فى الغد للرحيل .

وبينما هم يتأهبون للرحيل إذ رأوا جيشاً قادماً فقال الحارث : إن صدق
ظنى فهذا سبطرى عائد بجيشه ، وقد ظهر عليه جيش كسرى فلم ير منجاة
له إلا الانسحاب والتقهقر والعودة إلى وطنه .

أراد سبطرى أن يقهر جيش كسرى قبل رجوع الحارث ، لينال فخر

النصر وعزته ، وكان إياس بن قبيصة قد رأى نقصاً فى جيش الروم ، فقال
لرستم : لا بد أن يكون أبو الدوح قد فعل فى دمشق ما استوجب رحيل
الحارث بجنده ، ولهذا وجب أن نعجل بهزيمة البقية لنسرع إلى أبى الدوح ،
ونشد أزره وإلا أهلكه الحارث ومن معه وهكذا عزم الفريقان على التعجيل
بالحرب ، وطمع كل منهما أن يغلب صاحبه .

وأراد سبطرى أن يخضد شوكة خصمه ، ويخمد حدته فبادر وظهر فى
الميدان وحده طالباً مبارزة من يشاء من أبطال عدوه وعليه درع سابغة مذهبة ،
وبيضة براقة كأنها كوكب ، وفى جوانبها صلبان من ذهب ، متقلداً سيفه
ورمحه وترسه ممتطياً جواداً يسبق وميض البرق ، ثم أعلن بإشارته أنه يريد
المبارزة فارساً فارساً ، وكان كلما جاءه فارس قتله حتى أوفى على الثلاثين
وأعرض الفرسان عن الخروج إليه ، فثارت حمية رستم وبرز هو نفسه إليه ،
وفى يده عمود ثقيل من الحديد ، فتلقاه سبطرى بقلب ثابت لا يخاف موتاً ،
وبعد كفاح عنيف ضربه رستم بالعمود الحديدى ضربة أغرقت عظام
رأسه فى مخه فسقط لا يتحرك ، ونادى رستم فى جيشه أن خوضوا غمرات
القتال ، وارتقبوا نصراً عاجلا ، فجعلوا ينثرون الرءوس ويبقرون البطون حتى
قتلوا عدداً كثيراً ، ورأى جيش الروم عجزاً فى نفسه وضعفاً لهلاك سبطرى
وافتقادهم الحارث وجنده ، فلاذوا بالفرار ، بعد أن أسر منهم كثيرون فيهم
سنان بن حارثة ، وكان فرارهم إلى دمشق ، وهم الذين ظهروا للحارث قادمين ،

وحكوا له ما حل بجيش الروم فى غيبته من هزيمة وفرار ، فسألهم عن سبطرى فقالوا قتله رستم شر قتلة ، وهربت البطارقة إلى أنطاكية وفررنا نحن إليك .

وكان جيش كسرى يتعقب الهاربين ، فأسرع الجند من خلفهم حتى رأوا الحارث فى جيشه فظنوه محاصراً أبا الدوح فى دمشق ، فحض إياس على القتال جنوده كما حض رستم جنوده وبدأت معركة حامية بين جيش الحارث وجيش كسرى ، وخاض عنترة وجماعته غمراتها ، ونزلوا على جيش كسرى نزول الصاعقة ، فضربوا منهم الأعناق ، وساقوهم إلى الأسر والفناء كل مساق ، حتى جاء الظلام ونزلوا فى منازلهم صاغرين يتشاكون ما حل بهم من عنترة ورجاله من البلاء المبين ويتشاورون فيما يفعلون ، فقال إياس بن قبيصة : يخيل إلىّ أن عنترة ورجاله أبادوا أبا الدوح وجنوده ، وأراد أن يعرف سبب قدوم عنترة إلى دمشق ، فسأل الأسرى عن ذلك فقال سنان بن أبى حارثة : أنا الذى أتيت به ، وحكى لهم قصة أسره ورجاله فى الوادى الضيق ، ثم قال : وما أطمعنا فى حربكم إلا حبس عنترة ورجاله فى دمشق ، وأغلب الظن أن أهلها أطلقوهم من حبسهم ليدفعوا عنهم خطر أبى الدوح ورجاله، فلبوا الرجاء وأفنوهم أجمعين ؛ فغضب إياس وقال : لقد جلبت ياسنان بفعلتك هذه إلينا داهية دهياء ، إذ أتيتنا بهذا العبد الذى لا يقدر عليه أحد .

وفى الصباح وقبل استئناف القتال قال كبراء قواد رستم له : أصبح انتصارنا محالا أو قريباً من المحال ، لأن خصمنا يساعده عنترة ورجاله ، وهو وحده كفيل بقهر جيشنا وإن مد بمثلى عساكره عدداً ، ولهذا أرى أن نجرب القتال يومين أو ثلاثة ، فإن لم نفز فيها فلن نطمع بعدها إلا فى هزيمة ساحقة، وحينئذ وجب أن نعود إلى الأوطان، قبل أن يحل بنا البوار فقال رستم: لن أرجع حتى أنتصر ، وإن كانت مخافتكم من عنترة وجماعته فسأرميهم بداهية لا تبقى ولا تذر ، ونهض غارقاً فى حديده ومعه حربته وسيفه وعموده، وجعل يجول فى الميدان بجواده داعياً من يشاء إلى مبارزته ، وجعل يقضى بعموده الحديدى على كل فارس يبرز إليه،حتى تصدى له ميسرة، واختطف العمود من يده ، وضربه به ضربة كانت القاضية ؛ فهاج عسكر كسرى ، وانفلتوا يقاتلون ؛ وجعل عنترة ورجاله يطعمونهم الموت بسيوفهم حتى ولوا الأدبار خفافاً ، وتفرقوا فى القفار هرباً مخلفين وراءهم أموالهم وأثقالهم وخيلهم وبغالهم ومغانم كثيرة لأعدائهم ، واستولى الحارث على كل أولئك فرحاً ، وحفظ لعنترة وبنى عبس جميل صنيعهم وكان كسرى قد أسر كثيراً من بنى فزارة، فخلصهم الحارث وهنأهم بالسلامة وقال لهم : إن عنترة وبنى عبس وهبوا لنا الحياة ، وعصموا نساءنا ، وحافظوا على أموالنا ، وقتلوا أبا الدوح وجنده ، وردوا كيده إلى نحره ، وقتلوا قائد كسرى ونكلوا بجيشه ، وثبتوا أقدامنا ، ورفعوا رءوسنا وجعلونا فى

أعز مكانة ؛ فأصبح لهم فى نفوسنا أسمى منزلة ، وأصبحنا لا نعول إلا عليهم ، ولا نعتد إلا بهم ، فأثار هذا حقداً فى صدور بنى فزارة ولكنهم لم يبدوه لهم ، وقال سنان وهو يخادعهم : لله در عنترة وقومه ! ! هيا بنا يا قومى نعتذر إليهم ، ونطلب صفحهم عما اجترحناه من الخطايا فيهم ، وما قدمناه من سوء لهم ، فكثيراً ما وصل عنترة حبل الوداد بيننا وبينه ، ونحن بقبيح فعالنا نقطعه ، وكثيراً ما حمانا وحفظنا ونحن بجهلنا ننبذه ونضيعه ، فهو بذلك أكرمنا وسيدنا وصاحب اليد الطولى علينا ، ثم قام ومعه حصن بن حذيفة وجماعة من كبار قومه إلى عنترة فأثنى عليه الثناء الجميل ثم قال : جئناك يا ابن العم تائبين معتذرين والأمر إليك : فإما غفرت لنا خطايانا ، وإما أرقت بسيفك دماءنا ، وقد اشتقنا إلى ديارنا وأهلينا وليس لنا شفيع عند الملك قيس سواك ، وقد رجع إلينا رشدنا وأردنا أن نعيش ونحيا فى ظل حسامك ومعصم من رعايتك وصونك . فقال عنترة غافراً صافحاً : عزيز علينا أن نرى أحداً منكم يضام ، وأن يهجر أوطانه إلى بلد لا يجد فيه أمنه وراحته ، ولكن القدر نافذ ، والله يتولى الصالحين ، وسأشفع لكم عند قيس ، وسأمحو ما بقلبه عليكم من غضب ، وسأجعله يكتب إليكم بالرجوع إلى دياركم ، وستكون رجعتكم كريمة ، ومقامكم فى الديار كريماً قائماً على الألفة والأخوة بينكم وبين بنى عبس . وسأتخذ منكم ومنا قوة ساحقة أثأر بها من كسرى ، وأعاقبه بما فعل من العدوان والخيانة . ثم اجتمع الحارث بهم ، وهنأهم على

صلحهم مثنياً على عنترة لما كان فيه من جميل الصفح ، وكريم الشيم . وأغدق عليهم جميعهم نعمه ، واتخذ عنترة نديمه .

وبعد سبعة أيام رغب عنترة فى أن يرحل هو ورجاله إلى ديارهم فاستجاب الحارث لرغبته ، ومنحهم جياداً وأموالا كثيرة . ثم ودعه الحارث وهو يحمده ويعطيه المواثيق أنه وقومه جنود له متى شاء وأين أراد .

سار عنترة فى رجاله وبنى فزارة حتى وصلوا إلى الوادى الضيق الذى أسر فيه عنترة فتذكر شيبوبا أخاه وقال : ما عهدت شيبوبا ينسانى ويكلنى إلى كربتى وشدتى ، فماذا عسى أن يكون قد عاقه عنى ! ! فقال شداد : إنه الآن فى أعماق الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله ، ونرجو له السلامة والعافية ، وكان عروة قد رآه مقبلا من بعيد فقال : ذكرت أخاك فحضر ، وها هو ذا مقبل علينا كالباحث الذى وجد ضالته فاستبشر . فأرسلوا أبصارهم إليه فعرفوه وفرحوا فرحة الأم عثرت بوحيدها بعد افتقاده وطول غيبته ، وكان أشعث أغبر غارقاً فى متاعب سفره ، فقال لأخيه : حمداً لله الذى وقاك المحن وجنبك صروف الزمن ، فقال عنترة : نحمده إذ عافانا ونصرنا وسوّدنا وجعل لنا لسان صدق فى البدو والحضر . وكيف نسيتنى هذه المدة ، وقعدت عن تنفيس الشدة عن أخيك ؟ ! ! فقال : أقعدنى مرض ألزمنى الفراش ، وضاعف وقعه على جسمى بعدك عنى وخوفى عليك وشماتة الحساد بك ، ولما عرفت من تجار الشام قصتك وأنك محبوس عند الحارث

زال من قلبي الخفقان ، وما كدت أشفى من مرضى حتى أخذت أفكر فى خلاصك ، ومن أستعين به على نجاتك ، فذهبت إلى دريد بن الصمة وقصصت عليه ما جرى عليك من حوادث الأيام ، فحزن حزناً شديداً ، وقال : إنى باذل نفسى وما أملك لخلاص عنترة الذى غمرنا بمعروفه وفضله ، ثم جمع عشرة آلاف فارس من قومه وسار معى إلى أن نزلنا بأرض بنى عبس ، فذهب إليه قيس فى جماعة من أكابر قومه ، وشكوا إليه ما حل بهم وبالنعمان من كسرى وما أصابهم من ضعف وهوان بعد فراق عنترة ، وجعلوا يبدون أسفهم عليك ، ويرتقبون عودتك. ثم طلبوا من دريد أن يعينهم على دفع كسرى وعدوانه عليهم ، فقال : لقد حرمت على نفسى أن أشغلها بشىء قبل أن أخلص عنترة من أسره ، فإذا تم لى ذلك رجعت إليكم وعاونتكم ، وقال هانئ بن مسعود : وسأسير معك فى بنى شيبان لتخليص عنترة ، ثم نعود معا فى سرعة عاجلة لنلقى الفرس قبل أن يجيئوا لغزونا ، فقال دريد : وكيف تترك بنى عبس فى تلك الآونة الخطيرة التى بان فيها ضعفهم وغاب حاميهم ؟! وعليك البقاء فيهم لتكون ردءاً لهم إذ ما طمع الفرس فى غزوهم ، ولست أنا فى حاجة إلى معونة لأن معى جيشاً أهز به الجبال وأخسف الديار بأهلها ، وأخلص عنترة وإن كان فوق السحاب . واستمر شيبوب يقول : وبعد ثلاثة أيام رحل دريد وجنوده ، وأنا بين أيديهم أسعى على قدمى حتى أشرفنا على الوادى الضيق الذى أسرت أنت فيه ، وقبل أن نعبره رأينا فى

عنترة يذكر شيبوبا وهو حزين لطول غيبته فيحضر شيبوب أشعث أغبر من عناء السفر

جنباته أكثر من ألف فارس ورأينا خيولهم ترعى فى مروجه تحت حراسة
ثلاثين فارساً ، فقال دريد : هذه خيل لفرسان الشام ، وأغلب الظن أنهم
كامنون فى جنبات هذا الوادى يترصدون السائر فيه، فيفعلون به ما فعل
بعنترة ورجاله ، وربما خرجوا يطلبون بلاد الحجاز وقد كمنوا فى هذا الوادى
إلى أن تستريح خيلهم ، ومن الرأى أن نغنم هذه الخيل، ونأسر حراسها، لنعلم
منهم أين يذهبون ؟ ومن معهم من الجنود الذين لهم هذه الخيل ؟ لنكون على
بصيرة من أمرنا ، فقد خرجنا للقتال وما علينا أن نوقد ناره فى أى مكان ،
ثم أمر فرسانه أن تستولى على الخيل وتحضر حراسها بين يديه ، فسألهم عن
حالهم وأنذرهم إن لم يصدقوا قتلا عاجلا . فقالوا : أعطنا الأمان ونحن
نصدقك الحديث فإنا نعلم أن حالنا لا يعجبكم ، فمنحهم الأمان على
أنفسهم إن صدقوا ولم يكذبوا ، فقالوا : نحن ألف فارس ، أنفذنا سنان
ابن أبى حارثة سيد بنى فزارة لنهلك عنترة ورجاله فى هذا المضيق ،
وأصحابنا كامنون فى أعالى الجبال ، وقد أمرونا أن نرعى هذه الخيل فى تلك
المروج حتى إذا ما جاء عنترة لا ينكر أمرنا ولا يأخذ حذره من أصحابنا
الكامنين له ، وقد لبثنا هنا يوماً ولكننا لم نسمع لعنترة خبراً ولا رأينا له أثراً
فاطمأن دريد وقال : ولكن عنترة فى سجن الحارث فهل خلص من سجنه
هذا ؟ فقصوا عليه قصة نجاته وخلاصه ، إلى أن ودعه الحارث ورحل عن
دياره ، ثم قالوا : ولما رأى سنان بن أبى حارثة أن عنترة أصبح عند الحارث

أعز من ابنه حسده على ذلك ولكنه أخفى حقده وحسده فى نفسه وأظهر
لعنترة المحبة، وطلب منه أن يغفر له خطاياه، وأن يشفع له عند قيس حتى يعود
إلى دياره هو وقومه، فوعده عنترة بذلك وغفر له ، وما كان سنان صادقاً فى
استغفاره، وإظهار إخلاصه ومحبته، فذهب إلى الأسد الرئبال صديقه ونديمه
وقال له : إن رجع عنترة إلى بنى عبس ومعه هذه الأموال التى أخذها من
الحارث قتلت كمداً وحسرة ، فقال صديقه هذا : وماذا تريد أن أفعله ؟
فقال : أن تقتل هذا العبد ورجاله ولك جميع ما معه من الأموال والهدايا ،
أما أنا فيكفينى أن تقتله وتقتل رجاله ، وذلك بأن ترسل ألف فارس
يترصدونهم فى الوادى الضيق، وترميهم بالحجارة والصخور حتى يهلكوا ،
كما فعلت بهم حين أسرتهم ، وسأمدكم بألف فارس يعسكرون فى مخرج
الوادى حتى إذا ما سلم هو أو أحد من أصحابه قابلوهم وجرعوهم شراب
الموت ، فأجابه صديقه إلى ما دبر ، وسبقنا عنترة إلى هذا الوادى وترصدناه
حتى وقعنا فى أيديكم ، وتلك قصتنا وما أخفينا شيئاً منها عنكم ، قال
شيبوب : فاغتاظ دريد وهمّ بقتلهم، ولكن منعه ما أعطاه لهم من الأمان على
أنفسهم ، ثم أمر جيشه أن يحيط بالوادى ويهجم على الأعداء فى مكامنهم
ومعاصمهم وينزلوا بهم موتاً حميا ، فانفلتوا كالجراد ولم ينج منهم
إنسان ، ثم سلك الوادى بجيشه، وقال : يا شيبوب، من الرأى أن تسبقنا
ونحن فى أثرك حتى تلقى أخاك وتفضى إليه بما دبره سنان حتى لا يأخذه

على غفلة وغرة ، فانطلقت أمام الجيش كالسهم حتى التقيت بكم ، ودريد قادم إليكم على أثرى ولا ينتهى هذا النهار حتى يكون عندنا فى هذا المكان، تعجب عنترة وقال: ما ألأم سنانا ! وما أغدره من إنسان لئيم ! ! وأضمر له فى نفسه شر انتقام .

وما كاد النهار ينقضى حتى بان دريد وجيشه من خلفه فلقيه عنترة مثنياً شاكراً وقال : عزيز علينا أن تتعب من أجلى ! ! فقال دريد : إنا نرى معونتك واجبة، والسعى إليها كالسعى إلى البيت العتيق ، ثم أمر الجيش بالنزول ، وجلس إلى عنترة، فحدثه عنترة بكل ما لقيه وما فعله ، وما أسره سنان فى نفسه من غدر وخيانة ، فقال دريد : عرفت ذلك من جماعته وعرفت منهم أنه قادم بألف فارس من بنى فزارة ليشهد مصرع عنترة وصحبه، وأنه يسعى بذلك إلى حتفه بظلفه، وأرى أن نقسم جيوشنا قسمين على جانبى الطريق فإذا ما كان سنان ورجاله بيننا أطبقنا عليهم إطباق البحر على فرعون وقومه فأهلكناهم أجمعين فقال عنترة: إنهم يستأهلون أكثر من هذا، ولكنى أذكر ما لهم من النسب والقربى من قيس ، وأرى أن نطبق عليهم ونأسرهم جميعهم ونسوقهم إلى قيس، وهناك نقص عليه قصتهم ، فرضى دريد ولكن شيبوبا قال : ولن تسوقهم إلا مقطعى الآذان محلقى الرءوس والأذقان حتى يكونوا عبرة ، فقال عنترة : الأمر إليك فافعل بهم ما تشاء ، ثم كمنوا لهم على جانبى الطريق .

وفى الصباح وصل سنان بن أبى حارثة وحصن بن حذيفة فى ألف فارس

وهم جادون فى طلب الوادى الضيق لتنفيذ ما عزموا عليه . فهب الفريقان من مكامنهما وأطبقوا عليهم وحصروهم ، ونادى عنترة فيهم : يا سنان بن أبى حارثة يا حصن بن حذيفة أيها اللئام الخونة ، سقط فى أيديكم فاغمدوا أسلحتكم، وسلموا أنفسكم دون قتال ، وإلا أهلكناكم كما هلك فرسانكم الذين أرسلتموهم يترصدوننا فى مخرج الوادى ولم يبق منهم إنسان ، فحار بنو فزارة، وغشيهم ذهول وخيبة . وما كاد سيف عنترة يصافح رقاب بعضهم حتى أذعنوا، وأعلنوا استسلامهم . فأحضر عنترة سناناً بين يديه وجعل يوبخه على غدره وخيانته بعد أن غفر لهم وفك رقابهم، وكفل لهم حياة هنيئة فى أوطانهم ، فقال سنان : ما أردنا بخروجنا هذا لك شراً وغدراً، ولكنى سمعت أن بعض العرب تبعوك ليأخذوا ما معك من الأموال، فخرجت على الأثر لأبلغك وأعينك عليهم، وكانت فى نفسى أمور لقيس أردت أن أخبرك بها لتبلغها عنى ولكنك عجلت ونسبتنى إلى الخيانة والغدر، على أنى ألتمس لك العذر فيما ظننت وقلت . فقال عنترة كذبت ورب الكعبة ؛ إنكم لاتصلحون للإنسانية رجال بناء وعمران ولكنكم لها عوامل هدم ودمار، وعلق نشب فى جسمها ليمتص دماءها، وعُلّيق تشبث بنباتها ليعوق نموه وصلاحه، وليس لكم إلا الفناء العاجل . وسأسوقكم أمامى مهانين حفاة راجلين، فأضعكم بين يدى قيس و إخوة النعمان. ليحاسبوكم حساباً عسيراً على ما اجترحتم من خطيئة الغدر بهم. ولتلقوا جزاءكم الأوفى براً بالإنسانية

وصوناً لها أن تعبث بها أيدى العابثين من الخونة والمنافقين . ثم هوى عليه ضربا بالسوط فشوى جلده ، وأذن لأخيه شيبوب وابنه ميسرة أن يقطعا آذان من يشاءان منهم ، ولما هموا بالرحيل تقدم سنان إلى عنترة قائلاً : لا تخزنا فى قومنا، ولا تشمت بنا أعداءنا فقد تركتم فى بعضنا آثار مذلة لا تمحى بتقطيع آذانهم ، فهبك قتلتنا، واسمح لنا بالعودة إلى الشام نقيم هناك حتى تجىء آجالنا ، فقال : إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا إلى الشام، ولا تحسبوا أنكم ستعيشون فى بنى عبس كراماً أعزة ، فسأجعل منكم رعاة يحتطبون، ثم ابتلعهم السبيل إلى ديارهم وهم يتحادثون وعنترة مقبل على أخيه شيبوب يسأله عن عبلة وحالها مدة غيبته ، فيجيبه : لم تنضب لها عيون، وما جفت لها مآق ، وما استقرت لها جفون، ولما دنوا من الديار أمر أخاه شيبوبا أن يسبقهم إلى قيس بنبأ قدومهم ، ويقص ما جرى له وما غنم من الأموال .

ولقد دبَّ هذا النبأ فى نفس قيس دبيب الحياة ، ونشر بين المضارب من يعلنون البشرى بعودة عنترة سالماً غانماً، فهبت الأحياء فرحة مستبشرة، وركب قيس وإخوة النعمان وحجار بن عامر وهانئ بن مسعود وأكابر بنى شيبان ، وهبت جموع حاشدة من رجال ونساء إلى لقائه، ليدخلوا به الديار فى حفل عظيم ، فتداكوا عليه مصافحة وتقبيلا ، كأنه الحجر الأسود انهال الحجيج عليه لمساً ولثماً، ولما هدأت حركة اللقاء قال الأسود

أخو النعمان : أبلغنا أخوك شيبوب أنك أحضرت إلينا بنى فزارة ، وأنت تعلم ما كادونا به من غدر وخيانة ، وأود أن أقطع أعناقهم جزاء بما قدمته لنا أيديهم من إساءة ، فقال : دونك وإياهم فافعل بهم ما تشاء فهم جديرون بكل مهانة، أما كسرى فلن أتركه وقومه حتى أقطع منهم السوق والأعناق ، وأجعلهم فى الأمم عبرة وبين الناس من سقط المتاع ، ثم أحضروا الأسرى من بنى فزارة صفوفاً ، وتقدم قيس إلى سنان قائلا : ما أضلك من شيخ وما أحقرك من إنسان ! وهم أن يضرب عنقه وأعناق صحبه ، فتقدم إليه الربيع بن زياد قائلا : إنهم بنو أعمامك ومن الرأى أن تتمهل ولا تعجل ، فقتلهم نقص فى أهلك وأعوانك ، وصلاح حالهم قوة لك فى أهلك وأعوانك ، ومن الحزم أن تبقيهم فى أسرهم حتى يأتينا من الشام بقيتهم ، وبعد ذلك تعفو عنهم، وتجعلهم فى كفالة دريد بن الصمة وأشهد عليهم إن عادوا إلى خيانتهم أهدرت دماءهم ولا تقبل فيهم حينئذ شفاعة شافع ، فربما صلحت أحوالهم، فكانوا لك خير عون على خصومك ، وما حفزنى إلى هذا الموقف منهم إلا ما أرجوه لك من نفع ؛ لأنهم غدروا بى كما غدروا بك ، وكانت إساءتهم لى أعظم من إساءتهم لك ، وكل امرئ قليل بنفسه كثير بإخوانه وأهله .

ولما فرغ من قوله هذا أقبلت نساء النعمان ومن شاركهن فى أحزانهن على النعمان والفزاريات المتزوجات فى بنى عبس من جدات وأمهات وبنات

وزوجات باكيات صائحات : واغوثاه ! ! وارحمتاه ! ! واضيعة النساء
وخيبة الرجال ! ! ثم تقدمن مستشفعات : ارحموا العيال والأطفال ولا
تفجعوا نساء وبنات براهن طول الأحزان وقسوة الزمان ؛ فهؤلاء أسرى
بنى فزارة ، آباء لنا وإخوة وأبناء عمومة ، ولا تطيب لنا حياة بدونهم ،
فاصفحوا عنهم من أجلنا ، ولديكم الوسائل لإصلاح شأنهم ، وتقويم المعوج
من أمرهم . وكان الذى دبر هذه الشفاعة عمة حصن بن حذيفة زوجة
الأسود أخى النعمان ، وأخت حذيفة بن بدر ، فاستطاعت بلباقتها وقوة
تأثيرها أن تجمع هذه الجموع من النساء ، وفيهن المتجردة زوجة النعمان ،
وعبلة ، وكثير من نساء بنى عبس ؛ فلما رأى عنترة عبلة فيهن قال لها :
وماذا رأيت من الفزاريين من الخير حتى شفعت فيهم ؟ ! ! فقالت :
ما رأيت خيراً على أيديهم ، ولكن زوجة الأسود سألتنى أن أساعدها فى
خلاص ابن أخيها وخلاص أصحابه . وقالت : ليس لهذا الموقف أحد سواك ،
ولن يذهب العرف بين الله والناس ، فأنكرت على نفسى أن أرد سؤالها ،
وأفجعها فى أملها ورجائها بالإعراض عنها ، فجئت معهن وهن موقنات
أنك لا ترد لى رجاء والأمر بين يديك ؛ فإما رجعت إليهن مشرقة الوجه ،
حاملة بشرى العفو والخلاص ، وإما انفلت من بين يديك إلى عقر دارى
تعلونى سحابة من خزى الخيبة وسوء المنقلب ، فأصبح أحدوثة مذمة بين
العرب . فقال : وهل تظنين يا عبلة أن يرد عنترة لك رجاء ؟! اذهبى

إليهن وضاءة الجبين ، متفضلة عليهن بالعفو الشامل . ومريهن أن يخلعن
ثياب الحزن ويتجاوبن بآيات التهنئة والبشرى ؛ ثم التفت إلى أخيه وابنه
ميسرة وأمرهما أن يطلقا سراح الفزاريين على أن يكونوا عند دريد بن الصمة
حتى تأتيهم بقيتهم من الشام . وسننظر ما يراه قيس فيهم بعد أن تتم عدتهم .
ثم ذهب إلى أمه زبيبة فأطفأ بلقائه إياها لهيب شوقها ولظى أحزانها ،
وجعل يوزع ما أحضره من الهدايا والأموال على عشيرته رجالهم ونسائهم ،
ولما أدبر النهار اختلى بعبلة وجعل يحدثها عن نفسه وتحدثه عن نفسها مدة
محنته فقالت : طالت غيبتك ، وتناقل الناس خبر موتك ، ومرض أخوك
شيبوب وضاعف من مرضه أسفه على فراقك ، وغرقنا فى بحر لجىّ من
الأحزان والبكاء ، ولكن عمارة الوهاب حيي بعد موته ، وانبعث من مراقد
خموله وغمه ، وابيضت الدنيا فى وجهه ، وأيقن بظهور نجم سعده ؛ ولهذا
طمع فى أن يتزوجنى ، وألحف فى طلب ذلك من أمى ، وكثيراً ما قال لها :
إن ابنتك عبلة فقدت رجالها بموت أبيها وأخيها وبعلها . ففقدت مكانتها ،
وخمل شأنها ، وتخطتها الأنظار ، وزهد الناس فى التحدث عنها ، ولست
واجدة أحدا يرغب فى زواجها ، غير أنها لا تزال ابنة العمومة منى ،
وأحب أن أرفع منزلتها وأنبه شأنها على أحسن حال لم تخطر لها على بال ،
فشاوريها فى أمر زواجى منها لأزيح عنها عار هذا العبد الأسود ذى الوجه
الأنكد ، ولا عتب عليها منى فيما مضى من قبولها الزواج من عنترة . ثم

قالت : وكان لا يجد من والدتى إلا البكاء الموجع والأسف الأليم . فقال عنترة : عما قليل ترين يوماً عبوساً قمطريراً على بنى زياد .

٩

وفى الصباح توجه إلى دريد بن الصمة ، وتوجه إليه حجار بن عامر ، وهانئ بن مسعود ، وإخوة النعمان ، وكبار بنى شيبان ؛ وهناك فى الصحراء انتحوا ناحية وتشاوروا فيما يفعلونه بكسرى ، فقال دريد : أحزم رأى عندى أن نرسل إليه جاسوساً ينقل إلينا ما عزم عليه بعد رجوع إياس مهزوماً إليه ، فإن كان سائراً إلى بلاد الروم صبرنا عليه حتى يرسل جيوشه إليها ثم سرنا نحن إليه فخربنا الديار ونهبنا الأموال وأذقناه لباس العذاب الهون جزاء بما فعله بالنعمان ، وإن كان سائراً إلينا نكلنا به وإن كان فى عساكر عاد وثمود : فأجمعوا على هذا الرأى ، وقال عنترة: وليس لهذا الأمر أحد غير شيبوب أخى ، ثم أحضره وألقى فى أذنه ما أجمع القوم عليه ، فقال : أنا آتيكم بخبره وأدلكم على أقوم سبيل تمكنكم من قطع دابره ، وسأوافيكم بما أرى فى أعجل سرعة ، وأقرب زمن ، وانتظروا عودته بما يحمل لهم من الأنباء، وفى أثناء هذا الانتظار قام دريد فى بنى فزارة يعظهم ويذكرهم بما فعلوا من الخطايا ، ويبين لهم مصير الخائنين وينذرهم سخطاً

وكراهية وعقوبة ماحقة إن هم رجعوا إلى ضلالهم وغدرهم .

و بعد بضعة أيام كان شيبوب بين أيديهم فقال : أنبأ إياس كسرى أن عنترة وبنى عبس هم الذين نكلوا بجيشه ، ولولاهم لأصبحت بلاد الشام فى قبضة يده ، فأقسم أن يقود هو نفسه الجيش و يزحف به على دياركم فلا يبقى منكم أحداً ، ثم يستمر فى زحفه بجيشه إلى بلاد الشام فيجعلها تحت إمرته ، وقد جاوز عدد جنوده مائة ألف فارس ، وكان ذلك بتدبير من سبيع بن الحارث ، فانظروا ماذا أنتم فاعلون ! فقال عنترة : لأفرقن جموعهم ولأجعلنهم أشلاء مبعثرة ، وأما ذو الخمار فسترون سوء منقلبه ، ثم انتقلوا إلى الحديث فى تدبير الجيش الذى سيحارب جيش كسرى ، فقال قيس : لن يستطيع تعبئة جيش يقوض ملك كسرى إلا عبد المطلب بن هاشم سيد قريش ، وعميد البيت الحرام ، وما علينا إلا أن نفد إليه ونخبره أن كسرى غرته قوته وكثرة جيوشه فعزم على غزو البيت الحرام وهدمه ، وقتل كل من يتصدى لحمايته والدفاع عنه ، وإن اجتمع العرب كلهم فى صعيد واحد . وقد أتيناك خاضعين لمشورتك طائعين أمرك . واتفقوا على هذا ، ولكنهم لبثوا ينتظرون رجعة بنى فزارة العائدين إليهم من بلاد الشام ، وفى تلك الأثناء وفد إليهم عامر بن الطفيل يهنئ عنترة بسلامته فاستقبلوه بما يليق به وشكروا له وفاءه وجميل قدومه ، و بلغوه ما عزم عليه كسرى وما أجمعوا عليه من الرحيل إلى البيت الحرام ، فقال : وأنا معكم بكل ما

أملك من قوة ورجال ، وأحب أن أصحبكم إلى لقاء عبد المطلب بن هاشم ، فحمدوا له هذه النخوة العربية الكريمة ، ثم رحل هو إلى دياره ليأخذ فى تعبئة جيش من رجاله ، وبعد يومين من رحيله وصل ظعن بنى فزارة القادم من الشام ، فلقيهم سنان بن أبى حارثة وحصن بن حذيفة والفرسان الفزاريون الذين أتى بهم عنترة معه من بلاد الشام ، وقد فرحوا باجتماع شملهم واطمئنانهم فى ديارهم بعد الذى قاسوه من مشاق الغربة ، وكان قد أرسل قيس أخاه الحارث فى مركب للقائهم ، وإخبارهم بما اشترط عليهم من التوبة والرجوع إلى الرشد ومجانبة كل خيانة وغدر ، وأن دريد بن الصمة كفلهم ، وضمن لقيس حسن سلوكهم وصفاء سرائرهم ، وكان الفزاريون القادمون من الشام فى حماية ثلاثة آلاف فارس من بنى غسان لحراستهم والحيلولة بينهم وبين الهرب والفرار ، لأن عنترة كان قد أخبر الحارث بما ارتكبوه من الغدر والخيانة ، وطلب إليه أن يرسلهم فى حراسة قوة من عنده ، فغضب من أجل عنترة ، ولبى طلبته بعد أن أذن لهم وأهانهم منكراً عليهم مقابلة إحسان عنترة بالإساءة إليه ، وتدبير الحيل والمكايد لاغتياله . وبعث مع فرسانه هؤلاء هدية عظيمة له ، وأمرهم أن يعرفوا أخباره ، وما عزم عليه من محاربة كسرى ، وأن يبلغوه أنه على استعداد لإمداده بمائة ألف فارس من عنده يكونون عوناً له فى محاربته كسرى إذا كان قد عقد العزم على محاربته ؛ فتلقى عنترة هؤلاء الفرسان وبالغ فى إكرامهم ، وأخذ الهدية منهم ووزعها

على قومه ، وكان ممن أرسل إليهم من هذه الهدية الربيع بن زياد وأسرته ، فاغتموا لذلك وقال : إنه لم يعطنا من هذه الهدية حباً فينا ولا إكراماً لنا ولكن ليعلمنا أن ملوك الشام فى جانبه ، وأنهم يتوددون إليه بالهدايا والمنح ، وأنهم يحبونه ويتألفونه ويخشون بأسه ؛ وتلك حال أشد على نفوسنا من ضرب الحسام .

وبعد أيام قضاها الفرسان فى كرم وحفاوة بعث معهم إلى الحارث ألف ناقة ، وودعهم وداعاً حفياً ، فرجعوا شاكرين .

ورحلت إلى مكة جموع من بنى عبس وعدنان وفزارة وذبيان وهوازن وجشم وشيبان ومعهم كثير من النوق والجمال حتى بان غبار مسيرهم على مقربة من بيت الله الحرام ، فخرج إليهم عبد المطلب فى جموع ليتبين أمرهم ، فوجد من بينهم عنترة ودريد بن الصمة وهانئ بن مسعود وحجار بن عامر وإخوة الملك النعمان وكثيراً من رؤساء العرب ، فقابلوه راجلين ، ولما سلم عليهم سألهم عن مجيئهم فى هذا الوقت الذى لم يكن موسماً للحج وزيارة البيت الحرام . فقال دريد : جور كسرى وطغيانه ، فقد حشد جنوده وعزم على أن يغزو البيت ويهدمه ويقضى على قبائل العرب ، ثم يولى وجهه شطر الشام ليستولى على أقطاره ، وتدين له هذه الأمم بالطاعة والولاء ، ويكون صاحب الأمر والنهى فيها : يصرفها على حسب رغبته ومشيئته وهواه ، فلا يقف فى وجهه ملك أو أمير ، وقد جئنا لنبلغك

أمره ، ولتجمع من قبائل العرب جنوداً تصده وتفسد عليه عزمه ، وتريه أن العرب قوة ساحقة لا ينبغى أن يطمع فيها طامع وإن اجتمعت الدنيا عليهم . فقال عبد المطلب :

وما الذى جعل كسرى يغضب هذه الغضبة ويجمع لها هذه الألوف المؤلفة؟ فحكى دريد قصة كسرى وهزيمته فى الشام على يد عنترة وفرسانه الأبطال فعرض الأمر على وزرائه وقواده فقالوا : ما دام للعرب قوة فلن تقوم لنا قائمة : فهم الذين طردونا من الشام مغلوبين ، ولولاهم لملكنا أقطاره ، واستعبدنا حرائره وأحراره ، ودولتك الآن فى خطر من داهية حالقة ماحقة ، إن لم تسعفها بعاجل من رعايتك الصادقة ، وذلك بأن تأكل العرب قبل أن يأكلوك ، وتهلكهم قبل أن يهلكوك ، فاجمع كل فارس وراجل من كل بلدة قاصية ودانية ، واذهب بهم إلى أرض العرب ، فاقتل عنترة ومن يؤازره ويناصره من قبائلها ، واجعل من البيت الحرام معبداً للنيران، ولا تأخذك بهم رأفة فى دينك وملكك ، وإن أنت أهملت أو توانيت أفلت ملكك من بين يديك : فبادر بالحذر ، واتخذ غزوهم وقاية لك من الخطر فستصبح هذه القبائل ملك يمينك ، ولن يزعجك من ناحيتها عصيان أو تمرد ؛ وقد سمعنا أنه نزل على رأى وزرائه ، وأعد جنده لغزونا ، وما جئناك إلا بعد أن علمنا علم اليقين ، فقال عبد المطلب تعساً له وخسراً ! فوالله لأخمدن ناره ، ولأقوضن ملكه ، ولأجمعن له العرب من كل قبيلة

بعيدة وقريبة ، ولأغزونه فى عقر داره ، ولأمحون من سجل الأيام آية وجوده ! ثم شكرهم إذ جاءوه فى هذا الأمر الخطير ، ورجع بهم إلى الوادى المحرم وهو منزل بنى عبس الذى اعتادوا أن ينزلوا فيه إذا ما جاءوا إلى البيت الحرام ، فقد كان لكل طائفة من العرب مكان خاص بها تنزل فيه ، وقال لهم : بعد أن تستريحوا من تعب السفر يأتينى فى مجلس القضاء دريد وعنترة وقيس وأمراؤه لنكتب الكتب ونرسلها إلى قبائل العرب لتجنيد الجنود استعداداً لهذا القتال المجيد .

وذهبوا إليه فوجدوه جالساً ومن حوله سادات العرب ، وعنده كثير من العبيد والخدم ، فحيا قدومهم ، وجلسوا ، ثم أخذ يكتب إلى القبائل وهم يعاونونه حتى انتهى من كتابة الرسائل وقد جاء فيها : « باسم رب البيت الحرام ، إن عباد النار قد غرتهم قوتهم فجمعوا جنودهم قاصدين البيت الحرام لجعله معبداً للنار ، وللتنكيل بالعرب ، وسبى نسائهم ، ونهب أموالهم ؛ وليملكوا البلاد ، ويذلوا العباد ، وتكون الكلمة العليا لهم . فأوصيكم أن تنزعوا ما عسى أن يكون فى صدوركم من غل وكراهية ، وأن تكونوا يداً واحدة ، وأن تسرعوا بإرسال جنودكم إلينا حتى ندفع هذا الطاغية عنا وعن البيت الحرام ، ونمحو طمعه فينا ؛ وحذار من التقاعد والتواكل والتخلف فالأمر جد خطير ، وليس موعده ببعيد ، ثم نفر العبيد بهذه الكتب إلى القبائل ومكثوا هم ينتظرون .

وبعد ثلاثة أيام أطلت عليهم الوفود تترى ، واستمر تتابعها شهراً كاملا حتى أيقن عبد المطلب أنه لن يأتيه أحد بعد ذلك ؛ فقام عبد المطلب فيهم خطيباً يبين لهم فضل البيت الحرام ، ويحضهم على قتال كسرى وجنوده مجتمعين على قلب رجل واحد ، جاعلين كل تنازع بينهم نسياً منسيًّا حتى لا يجد العدو فيهم منفذاً من تفرق وتناكر وتنازع ذاكرين ما يلحقهم من الخزى والعار إن ظهر عليهم كسرى ،وما زال بهم حتى أشعل نار الحمية فى صدورهم ، وطلبوا التعجيل بالقتال ليرووا ظمأ سيوفهم بدماء الأعداء ، وقد جعل عليهم دريد بن الصمة لكبر سنه وكثرة تجاربه ، ورحلوا بعد أن تركت كل قبيلة نساءها عند عبد المطلب ومعهن خمسون فارساً وجعلوا يتناشدون الأشعار وهم سائرون .

* * *

أما كسرى فقد أخذ فى جمع الجيوش حتى كان بين يديه أربعمائة ألف مقاتل كاملى العدة من الفرس والديلم والعرب الذين تحت يده ، ولما تم له ذلك اطمأن لجنوده وسار بهم تحت قيادته ، وجعل ابنه أردشير خلفاً له على ملكه ، ووصاه بالعدل فى الرعية ، وقد فرح به الحجاب والوزراء ، وألقوا إليه أزمة الطاعة والمعونة .

ثم سار كسرى يقطع الفلوات وكأنه يقود قطعاً من السحاب حتى أشرف على الحيرة ، فخرج نائبه فيها إلى لقائه ومعه سادات العرب الذين فى

حماه من بنى طى ، والفرسان الذين جمعهم عنده من كل قبيلة وحى ؛ فدخل يستريح فى سرادق عظيم كان قد أعده لحلوله فيه وراحته ، وكان إياس ابن قبيصة قد بعث عيونه فى أرض الحجاز لينقلوا إليه أخبار العرب ليبنى أمره على أسس من الواقع ، ويواجه الحوادث بما ينبغى لها من استعداد .

فنقلوا إليه تجمعهم عند البيت الحرام ، وسيرهم فى سبعين ألف مقاتل ، ومعهم أبطال العرب المشهورون من أمثال عنترة وهانئ ، ودريد، وعامر بن الطفيل ؛ ففزع إياس وجزع وقال : وأين تركوا نساءهم وأموالهم فقالوا : عند زمزم والحطيم فى حراسة أربعة آلاف فارس أو يزيد .

فلما جاء كسرى واستقر فى سرادقه دخل عليه إياس وأفضى إليه بكل ما نقلته إليه عيونه وجواسيسه ، وكان ذلك على مسمع من رؤساء مملكته وأصحاب الرأى والمشورة ، فقال كسرى : ما حسبت إلا أنهم أكثر منا عدداً ولو كنت أعلم أنهم على هذه القلة ما أزعجت الفرسان وجمعت لهم هذه الجموع الحاشدة ، فقال وزيره الأكبر بزرجمهر : لا تحتقر عدوًّا لك مهما يصغر شأنه ، فالنملة على صغرها تزعج الفيل على ضخامته ، والفأر على ضعفه يشق فى الجبل العظيم جحره ، واعلم بأن الدول تمرض كما تمرض الأجسام ، وليس لها إلا أصحاب الرأى والخبرة ، وهؤلاء العرب قد داخلهم الطمع فينا بعد واقعة ذى قار التى قتل فيها ابنك شرسان ، وهزموا لنا مائة ألف فارس ، وكانت عدتهم ثمانية آلاف . فمن الحزم ألا تحتقرهم ، وألا تهمل شأنهم .

فقال كسرى : لقد قالت الحكماء إن انتصارهم علينا فى واقعة ذى قار كان ببركة مولود مؤيد من رب السماء وسأحمل عليهم فى هذه المرة حملة أهلك بها الرجال ، وأسبى النساء ، وأغنم الأموال ، فقال بزرجمهر : حينئذ وجب أن تعجل بإرسال ثلاثين ألفاً إلى البيت الحرام حتى يسبوا نساءهم ، ويقتلوا فرسانهم الذين خلفوهم ، ويستولوا على البيت الحرام، ثم تهجم على جموعهم السائرة إلينا ، فإذا ما شردناهم لا يجدون من البيت الحرام ملاذاً يلوذون به ،ويقاتلوننا دونه ، فقال كسرى لإياس بن قبيصة : ليس لغزو البيت الحرام سواك ، فسر إليه فى قومك وجندك ومن تحتاج إليهم من طوائف الفرس لتقوم بما أشار به بزرجمهر . فقال إياس : إن أنا ذهبت بقومى إليه فلن أبلغ بهم مراماً لأنهم لا يكادون يرون البيت الحرام حتى يهابوه ، ولا تستقر سيوفهم فى أيديهم إذ أنهم يدينون له بالطاعة والاحترام؛ وأصلح الناس للقتال عند البيت الحرام العجم والديلم . وكان ذو الخمار حاضراً فقال : لقد كنت أول من يقوم بهذا الأمر لولا أن زوجتى بنت دريد فى نسائهم عند البيت الحرام ، وفى قلبى من محبتها وهواها الشىء العظيم ، ولولا أنى مشغوف بلقاء عنترة وقتاله ؛ فقال كسرى : ما لهذا الأمر إنسان غيرك لأنك أعرف الناس بطرق الحجاز ومنازل العرب ، وأما عنترة فدع أمره إلينا ، وسنغلبه بكثرة عددنا ، على أننا نستطيع أن نؤجل اللقاء بالأعداء حتى تعود إلينا منصوراً ، وإذ ذاك تستطيع أن تلتقى بعنترة،

ويكون لك فخر هزيمته أو قتله كما كان لك فخر الاستيلاء على البيت الحرام ، فلم يجد ذو الخمار مفراً من تلبية رغبة كسرى وقال : أرسل معى من تشاء وستسمع ما يسرك ، فسأهدم البيت ،وأحطم الأصنام ،وأمكن لك فى أرض الحجاز .

وقاد ذو الخمار جيشاً عدته ثلاثون ألفاً إلى البيت الحرام وهو لا يدرى ما خبأه له القدر من المحن والبلايا ، وقال لرئيس جنده : كنت أود أن ألتقى بالجيش الذى فيه عنترة ، ولكن خوفى من كسرى أرغمنى على طاعته وتنفيذ رغبته .

وقاد كسرى جيشه ممتطياً جواداً أسرع من خطرات الأوهام فى موكب من رؤساء الأقاليم حتى بانت طلائع جيشه وجيش عبد المطلب ، وتجاوب بريق السيوف والأسنة فى الطائفتين ، فنزل كلٌ فى مكانه وأقاموا خيامهم مرجئين القتال إلى صباح غدهم ، وحض كسرى جنوده على الاستماتة فى القتال ، وألا يعود أحد منهم إلا فى صحبة أسير ،أو لديه آثار دم من قتيل، ومن لم يفعل ذلك غضب عليه وسجنه أو نفاه من أرضه ، وفى ضحوة النهار كانت المعارك قائمة على سوقها ، والجماجم تتساقط عن أجسامها ، والأرواح تتصاعد إلى بارئها ؛ وعانى الفرس من العرب متاعب كثيرة ، وطاف الموت فى كلا الفريقين حتى كانت جثث القتلى موطئاً لسنابك الخيل ، فأصاب الفريقين سعار من الجهاد والقتال ، فلم يخرجهم من

حربهم قدوم الليل وانتشار الظلام ، وأمر كسرى أن يوقدوا النار من حولهم حتى تمزق بضوئها ثياب الظلام ، وعقد العزم على ألا تقف رحى الحرب وإن تعاقبت عليها الأيام والليالى ؛ ولكن القدر نقض عزمهم هذا ، وخفف عنهم هذا البلاء ، فأرسل السماء عليهم مدراراً ، واجتمع على الفريقين قوتان قاهرتان ، ظلام الليل وانهمار السماء بماء كأفواه القرب ، وريح عاصف أزعج كل من هب ودب ، فشغلت كل طائفة بأمرها ، ووقف القتال إلى أن تنكشف هذه الشدة ، ويسكت غضب الطبيعة ، وعكفوا أسبوعاً كاملا معرضين عن القتال حتى يستريحوا ، وتجف الأرض التى غرقت بمياه المطر ، ويصلحوا ما أفسدته الريح وقت هبوبها .

وفى نهاية الأسبوع جاء كسرى رسول ذى الخمار فقال : جئتاك بثمانين امرأة من نساء العرب ، سباهن ذو الخمار وأراد أن يعرف رأيك فيهن : هل نسير بهن إلى المدائن ، أو نحضرهن بين يديك ليعلم العرب المقاتلون أنهم أخذوا من خلفهم ، ووقع البيت الحرام فى يد أعدائهم ، وحينئذ تضعف قواهم ويختل نظامهم ولا يستطيعون قتالا ؟ فقال كسرى : أحضرهن حتى نزلزل بهن أقدام العرب ، فقد لاقينا منهم الهوان والويل ، وأكلت سيوفهم كثيراً من رجالنا ، وكنا قد عولنا أن نواصل القتال حتى نغلبهم بكثرتنا ، ولكن العواصف والأمطار فى ظلام الليل أوقعت الرعب فى قلوب الجند ، ففروا من الميدان لينجوا بأنفسهم من هذا الغضب الذى صب

عليهم من السماء ، والذى فعل بهم ما فعل بالأعداء ، وصرفهم عن القتال كما صرفنا .

وتحرك جيش كسرى فى مطلع الشمس يسوق أمامه النساء والبنات راكبات جمالا ليعرفن لدى أقوامهن من العرب ، وليروا آثار هزيمتهم فى البيت الحرام بأعينهم ، فيضيع ما فى صدورهم من رباطة جأش وجلد .

رأى العرب هؤلاء النساء صائحات مستجيرات ، فظن كل واحد منهم أن امرأته أو ابنته أو أخته أو قريبته قد أسرت معهن ، فالتهبت رءوسهم غيرة وحمية ، وبايعوا الموت بيعة صادقة ، وصاح فيهم عنترة صيحة خلقت من الفارس الواحد فيهم فرساناً ، ومن السيف فى يده سيوفاً ، ومن الرمح رماحاً ، وكأنما سرت هذه الروح إلى خيلهم فاشرأبت أعناقها ، واستقامت آذانها ، وشخصت أبصارها ، وارتفع صهيلها ، وتدفقت بهم كالسيل الجارف إلى صفوف أعدائهم ، وكأنها بهذا تقول لهم : الموت ولا هذا العار . فالتقوا بهم كالموج المتلاطم ، وجعلوا يحصدونهم حصداً ويجذونهم جذاً . وجاء الليل وعدة القتلى من جيش كسرى سبعون ألفاً ، فعاد كلٌّ إلى معسكره فى انتظار صبح الغد وشمسه ، وقد أصيبت عين ميسرة اليسرى فتلفت ، وأصاب كسرى غمٌّ وهمٌّ عظيمان فقال لرجال مشورته : لقد كان سوق نساء العرب أمامنا مصيبة علينا ، وليتنا ما فعلنا هذا ، فقد ضاعف من قوتهم ، وقاسينا بسببه أشد الأهوال وأخطرها ، وإن

دامت الحال على نحو ما رأينا اليوم فما نحن بمنصورين ، ويحسن أن نرسل هؤلاء النساء إلى المدائن ونطلب مدداً من الفرسان نعوض به النقص الذى أصابنا فى الأنفس ، ثم عزموا على أن يهاجموا الأعداء بكثرتهم دفعة واحدة ليعجلوا بفنائهم وتشريدهم ، وقالوا : ربما قدم علينا ذو الحمار وجنده فناصرونا وحينئذ يكون النصر لنا .

* * *

أما العرب فبينما هم يتشاورون فيما يفعلون إذ طلع عليهم رسول السيد عبد المطلب يحمل إليهم ما فعله ذو الحمار بنسائهم فى البيت الحرام وقال : إن الرب القدير نجاكم ، ومكن فرسانكم من ذى الحمار وجنده ، فأسروه وقتلوا رجاله ، وهو الآن سجين السيد عبد المطلب ، فقال دريد : حدثنا عما جرى فى البيت الحرام فى إسهاب وتفصيل ، فقال : بينما كانت بعض النساء لاهيات فى المروج أغار عليهن ذو الحمار فأسرهن وأرسلهن فى الحال إلى كسرى ليقوى بهن عضد جنده ، ويطمئنه عليه فى غزوته ، وبلغ ذلك فرسانهن الذين وكل إليهم حراستهن ، وكانوا بأمنهم لاهين ، فأسرعوا إلى ذى الحمار ورجاله ، وقامت بينهم حرب ضروس أكلت كثيراً منهم وانتهت فى أول الليل بهزيمتهم ، فاستنصروا عبد المطلب فدعا نساء مكة وأمرهن أن يحملن أطفالهن على أكتافهن ، ويطفن بالكعبة ، ويدعون رب البيت أن يكشف عنهن السوء ، ويدفع عن البيت من أحاطوا به من الأعداء ،

ثم قام عبد المطلب على منبر بينهن يضرع إلى الله ويقول : اللهم أنت القوى المتين ، وأنت أرحم الراحمين ! ! فاحفظ بيتك من كل معتد أثيم . وهن يؤمنّ رافعات أكفهن إلى السماء ، فاستجاب الله الدعاء ، وأرسل عليهم ريحًا صرصراً عاتية ، وإعصاراً فيه نار محرقة ، قاعت خيامهم ، وبعثرت أمتعتهم وأهلكت كثيراً منهم ، وما نفعهم فرارهم وهربهم ، فوقع ذو الحمار ومن معه من بنى أعمامه وفرسانه أسرى ، وسيقوا أذلة إلى عبد المطلب فى مكة ، فأودعهم معتقلهم يقاسون فيه ألوان التعذيب ، وأرسلنى إليكم لأبلغكم ما حصل حتى تشتد منكم السواعد وتقوى الصدور ، وحتى لا تبتئسوا برؤية نسائكم أسرى فى أيدى أعدائكم من جيش كسرى . ففرح دريد ومن معه ، وحمدوا الله على نصره لهم ، وقالوا : لقد أصابنا طرف من تلك الرياح ، وهى التى طردت عنا جيش كسرى فى ليلة حالكة ممطرة ، ثم سألوه عن النساء اللائى أسرن وجىء بهن إلى كسرى ، فذكر أسماء كثيرات ، منهن : عبلة بنت مالك ، فقال عنترة : ويل لكسرى وجنوده إذا ما أشرقت الأرض بنور شمسها ، وكذلك توعد جيش كسرى كثير من فرسان العرب البارزين ، فخشى عليهم دريد أن يخوضوا المعركة فى الصباح ويكونوا حطباً لهذه الحرب ، لكثرة فرسان كسرى الذين يستعملون قسيهم ونبالهم فيقتلون بها وهم آمنون على أنفسهم لبعدهم عن سيوف أعدائهم ورماحهم ، ورأى فى المبارزة عصمة لهم من الخطر ، ووسيلة إلى قتل كثير

من أبطالهم واحداً فى إثر واحد ، وإلى الرعب يملأ قلوبهم ، ويطير استقرار الطمأنينة من عيونهم فقال قيس : ذلك أمر بعيد ، فهم لا يوافقون على المبارزة ، لأنهم من الحذر فوق تقديرك ، وأرى أن نجمع جمالنا ونرزم على أجسامها الأخشاب وقاية لها ، ثم نسوقها أمامنا بوخز السهام سوقاً قاسياً فتدوس بأخفافها جيوشهم ، متقية سهامهم بما جعلناه على أجسامها من الخشب .

وفى الصباح برزوا إليهم ينشدون قتالهم فوجدوهم قاعدين غير راغبين فيه ، فقال العرب : لعلهم أرادوا أن يستريحوا ، وكان العرب فى حاجة إلى الراحة أيضاً فاطمأنوا فى معسكرهم يستريحون .

لم يكن قعود جيش كسرى لأنهم يستريحون كما ظن العرب ، ولكن إياس بن قبيصة فى الليلة التى تولى فيها الحراسة سمع جلبة وحركة فى جيش العرب فأرسل جاسوسه لينقل إليه خبرهم ، فسمع هذا الجاسوس ما قاله رسول عبد المطلب فى مصير ذى الحمار وفرسانه ، وما دبره العرب فى قتال الفرس بجمالهم ، ولما جاءه بكل ما سمع ذهب هو إلى كسرى فى خيمته فوجده يحث قواده ورجال مشورته على قتال العرب فى الصباح ، فألقى فى آذانهم جميع ما نقله إليه جاسوسه ، فحزن كسرى وسكت ساهماً يفكر ثم قال : لقد ظهرت لنا آيات كبرى على أن العرب مؤيدون من ربهم ، ومن كان نصيره الله فلن يغلبه غالب ، ويظهر أن العرب على الحق ونحن

على الباطل . وركن إلى رجال رأيه ومشورته يمدونه بما يرونه . فقال وزيره الأكبر : لقد قلت كثيراً إن العرب مؤيدون بنصر الله لهم ، ومن الخير لنا أن نصالحهم ونحسن إليهم مداراة لهم واتقاء لشرهم ، كما فعل آباؤك من قبل فقال كسرى : وكيف يكون ذلك الآن وعلاقتنا بهم على أشد ما تكون من التوتر والخصومة ، وضاعف من شدتها ما بيننا وبينهم من قتال ؟ ! ! فقال : أن أذهب إليهم متلطفاً وأدعوهم إلى السلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأبلغهم أن كسرى يعطف عليكم ، وهو فى أشد الألم بما قدمته يداه لكم ، وهو يمجد البيت الحرام ، ويحب أن يبقى بقاء الشمس ، ويود أن يتخذكم أصدقاء وأعواناً له ! وإن كنتم غضبتم من أجل قتل النعمان فاذكروا أنكم قتلتم ابنه شرسان ، وسيرد إليكم نساءكم مكرمات حاملات ما وهب لهن من الهدايا والتحف ، وسيجعل الأسود أخا النعمان ملكاً وسيداً ، ويتخذ منه ومن دولته نصيراً وسنداً ، ومع كل أولئك يعلن لكم اعتذاره ، ويطلب إليكم أن تغمضوا أعينكم عما سلف ، فقد بان له أنه لم يكن على حق فيه ، وهذه دعوته إلى السلام والوئام قد جعلها ردءاً له من كل شر ، وبراءة من كل عدوان وبغى .

قال الوزير : وقبل أن أذهب إليهم أرسل إلى البيت الحرام جاسوساً يحمل إليك مصير ذى الحمار ، فإن كان قد هزم وهلك فرسانه كما بلغنا ذهبت إليهم وبلغتهم ما أشرت به ، وإن وجد الجاسوس كذب ما أشاعه
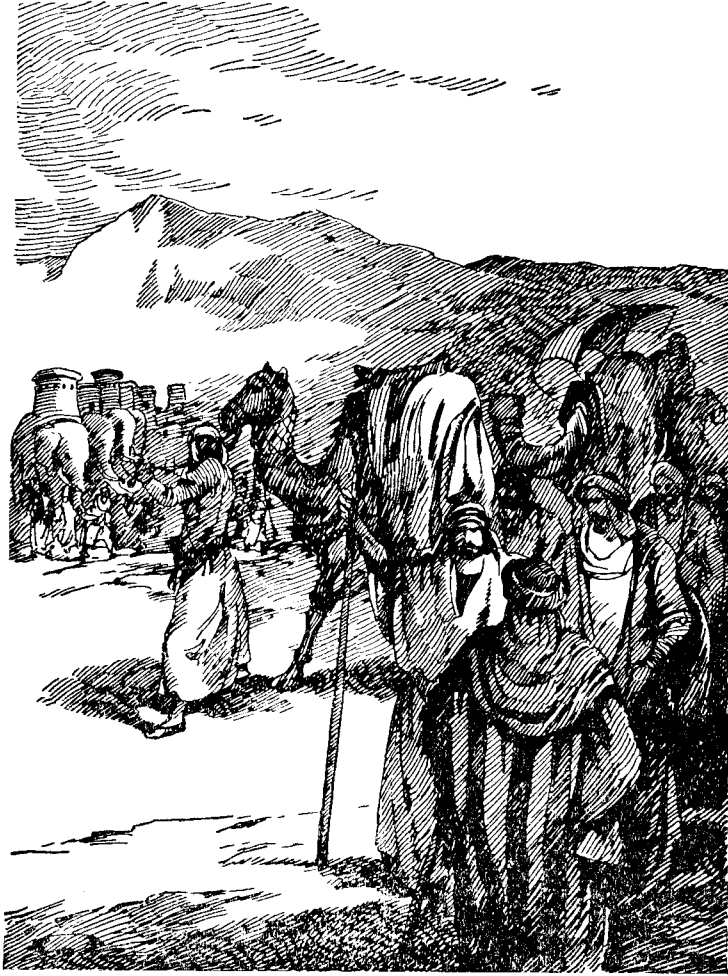
العرب عن ذى الحمار من هزيمته وفناء رجاله كان ذلك منهم خديعة يريدون منها تخويفنا وإلقاء الرعب فى قلوبنا ، وحينئذ لا أذهب إليهم ، ثم نتداكّ عليهم ونضربهم ضربة واحدة تجعلهم يلوذون بأكناف البيداء هرباً ، فقال كسرى : الخير فيما قال ، ولكن ما رأيك إن هاجمونا بجمالهم ونفذوا خطتهم ؟ فقال الوزير : إن فعلوا ذلك أحرقنا جمالهم بالنفط وكان النصر حليفنا ، لأننا نزعنا ما فى صدورنا من كل غـلّ ، ودعوناهم إلى السلام الذى يؤيد الله أصحابه والساعين له والداعين إليه . فاستراح كسرى وأمر أن يقف القتال ، وأن يرسل إياس جاسوساً يتبين مصير ذى الحمار ويأتيهم على عجل .

كان وقف القتال أملا وبغية فى صدور العرب لحاجتهم إلى الراحة ، ولانتظارهم عودة جمالهم من المروج محملة بالأخشاب لتنفيذ خطتهم ، وبعد ثلاثة أيام من وقف القتال عادت الجمال فهبوا لاستئناف القتال ، وشعر كسرى بذلك فاستعد جنوده لإحراقها بالنفط .

وخز العرب جمالهم بأطراف الأسنة وخزاً فانحدرت إلى الأعداء انحدار الصخرة حطها السيل من قمة جبل مرتفع ، وبادرها جنود كسرى بالنفط وأشعلت النيران فى أحمالها فلم تجد مفرًّا من لهيبها إلا أن تندفع مسرعة أمامها فاختلطت بصفوف الفرس وأفيالهم فأصابتهم بنارها وأوردتهم موارد التهلكة ، وكان النفط وبالا عليهم ، وقد كان محط آمالهم ، فى الانتصار على أعدائهم ،

جمال العرب وفيلة الفرس فى الميدان

وانطلق أبطال العرب حينئذ فيهم بسيوفهم من أمثال عنترة وعامر ابن الطفيل وهانئ بن مسعود وحجار بن عامر وملاعب الأسنة ، فقتلوا كثيراً منهم وحل اليأس فى قلوبهم .

وكان كسرى فى جماعة من خاصته قد اعتصموا بربوة عالية ، فنفر فرسان العرب إليها ونادى فيهم عنترة أن اتركوا خيلكم إلى حراس منكم واتبعونى راجلين إلى مقعد كسرى على تلك الرابية ، فعسى أن نأسره لنجعله فدية لنسائنا ، وصعد عنترة ومعه قلة من أبطال العرب ، ودارت بينهم وبين الفرس من حول كسرى معركة أليمة ، قاسى الفرس فيها المتاعب ، وكادوا يقعون صرعى هزيمة منكرة لولا كثرتهم واستماتتهم وكان أبطالهم يتعقبون عنترة ويجرون من خلفه وهو مشغول بقتل كل من يلقاه ، فضربه واحد منهم بعمود حديدى ثقيل على ساقيه ، فوقع على الأرض فى غيبوبة ثقيلة ، ودافع دونه أبطال العرب ولكن دفاعهم لم يغنهم شيئاً ، فكانوا هم وعنترة أسرى فى يد الفرس . واشتدت الحال على فرسان العرب الذين هم فى أسفل الرابية فمنهم من أسر ومنهم من هرب .

استبد بكسرى غرور هذا الفوز فأمر أن يحضروا الأسرى عنده ليشرف على تعذيبهم ثم يصدر أمره فيهم بقطع أعناقهم ، فأشار عليه بعض وزرائه ألا يعجل بالحكم فيهم ، وأن يعتصم بالأناة حتى لا يبرم أمراً يكون وخيم العاقبة ، ولا ينفعه إذ ذاك ندم ، وقالوا له : إن السلامة فى

التأنى ، والرأى أن ترسلهم إلى المدائن ، وتنتظر رسول إياس إلى مكة حتى يأتينا بخبر ذى الخمار وجيشه ، فإن كان قد سلم هو وجيشه نفذنا فيهم ما تشاء من الأحكام ، وإن كان قد أسر وهزم مننا على العرب بإطلاق سراحهم ونسائهم ، فقال كسرى : أنفذوا رأيكم سريعاً ، ولا تتركوا فى هذا المكان منهم أحداً . فأرسلوهم فى مائتى فارس إلى المدائن .

أما بقية العرب فقد اجتمعوا للمشورة فيما يفعلون بعد أن أسر قوادهم وأبطالهم ، فأجمعوا رأيهم على أن يلقوا بأنفسهم فى غمار معركة حاسمة ، وإن غلبتهم كثرة الفرس لجئوا إلى الجبال وأووا إلى الشعاب ، واستمدوا المعونة من عبد المطلب .

وأما عنترة ومن أسروا معه فقد حملوا إلى المدائن ، وبعد ليلة من مسيرهم أفاق عنترة من غيبوبته فوجد نفسه وابنه وأقرانه مقرنين فى الأصفاد محبوسين فى القيود والأغلال ، فشق على نفسه هذه الحال ، والتفت إلى رجال الفرس سائلا : إلى أين أنتم بنا سائرون ؟ ولماذا لم يضرب كسرى أعناقنا ليستريح من حربنا وقتالنا ؟ فقالوا : إنكم إلى ضرب أعناقكم سائرون بعد أن تذوقوا فى المدائن العذاب المهين ، وسنأخذ بقية فرسانكم كما أخذتم ، وسوف يلقون ما لقيتم ؛ فاغتاظ عنترة وعز عليه أن يقعوا فى الأسر والهوان كما تألم لبقية الفرسان الذين خلفهم فى مكان المعركة ولا يدرى ما حل بهم ، ثم استيقظت فى نفسه البطولة التى تستصغر كل أمر

عظيم وحادث أليم فصبر فى ثبات وجلد .

وكان أزدشير بن كسرى قد وضع نساءهم فى ناحية من الإيوان فى ناحية من القصر وقد بهره حسنهن ، وذات يوم كان واقفاً بمكان من الإيوان فحانت منه التفاتة إلى مكان الأسيرات من نساء العرب ، وكن جالسات مسفرات لا يغطى وجوههن إلا سحابة من حزن قاتمة لا تبرح ولا تنقشع ، وهذه السحابة وإن أبدت حزناً وحسرة فلم تستطع أن تخفى ما هن عليه من جمال ونضرة ، فوقعت نظرته على عبلة فانبهر ، وأطال الوقوف وثبت فيها النظر ، فخفق قلبه واصفر لونه ، لأنه شغف بها ، فتقدم إليه غلمانه يسألونه عما أصابه فغيّر من حاله وجعل عينيه تدوران فى رأسه فقال : عجلوا بإحضار قابلتى فقد اعترانى مرض فى جسمى ، فلما كانت بين يديه جعلت تمسح بيدها على جسمه ورأسه ، وتدعو له بالسلامة مما نزل به ، ثم سألته عن حاله ومبعث آلامه ، فأخبرها عن حبه لعبلة ، وأنه إن لم تجمعه بها الليلة مات كمداً وحسرة ، فقالت : أمرك هذا هين علىّ ولن يعوقنى عنه شيء ، فلا يشغلك عن راحتك ، وأبشر بنيل مرادك ، وهى ملك يمينك ، فإن رضيت هنئت بها وهنئت بك ، وإن تأبت صببت عليها سوط عذابك ، فقال : إن نفسى لا تطاوعنى فى تعذيبها ، فقد أحببتها حبًّا يجعلنى أفزع إن رأيتها معذبة ، فبلغيها ما أحمله لها من محبة ، وقوديها بسحر بيانك ، وقوة حجتك ، وجميل احتيالك ، لأسعد بها ،

ويزول عنى ألم البعد عنها ، ويحسن أن تعرفى هل هى خالية أو ذات بعل؟ وهل هى حسيبة نسيبة ؟

ذهبت القابلة لساعتها إلى النساء فى مكانهن ، وجعلت تتحدث إليهن حتى عرفت كل شيء أرادت معرفته عن عبلة ، واستشفت من خلال الحديث أن اتصالها بأزدشير يكاد يكون أمراً عسيراً إن لم يكن محالا ؛ ولما رجعت القابلة إلى أزدشير قالت : لا ينبغى للعاقل أن يضيع عمره فى طلب ما لا يدرك ، كما لا ينبغى أن يلقى نفسه عند من لا يحب أن يراه ، فتلك مذلة ينأى عنها كل عزيز . فقال : كأنك بهذا القول ترمين إلى غاية تشيرين إليها من طرف خفى ، ولكنى أحب الإفصاح عنها فى صراحة ، فماذا تريدين من قولك هذا ؟ فقالت : إن التى تعلق قلبك بحبها من سادات بنى عبس ، وزوجها عنترة بن شداد الذى أزعج بشجاعته الجن والإنس . فقال : سواء علينا أكانت كما تقولين أم فوق ما تقولين فعليك أن تحتالى فى تحقيق رغبتى بأية وسيلة وفى أقصر مدة ، فإنى لا أستطيع الصبر عنها ، وهى عندى أفضل من ملك أبى . فأسرعت القابلة إلى النساء ومن حولها جماعة من الخدم اللائى قلن لهن : هذه قابلة أزدشير ابن الملك ، بعثها إليكن لتقف على حالكن ، وليكشف عنكن آلامكن ، وما عسى أن يكون من نقص فى طعام أو خدمة ، فدعون للملك وابنه ، وأقبلن عليها فرحات ، وجعلت هى تتعرف أحوالهن واحدة بعد أخرى حتى جاءت

عبلة واختلت بها ، ولما سألتها عن أحوالها قالت : وهل يخفى على أحد حال أسير اغترب ، وفارق أهله وعشيرته ، وعاش بين أناس ليسوا من جنسه؟! فدعى الخلق للخالق ، ولا تحركى فى الناس ساكن الأحزان ، وكفانا ما نحن فيه من هوان الأسر ووحدة الغربة ، والحرمان من الأهل والعشيرة ، ومسقط الرأس ، ومشرق الحداثة . فقالت : الآن خفف الله عنك وانقشعت سحب أحزانك وأشرقت دنياك بنور هناءتك ، وأصبحت من ربات الخدور فى مقصورات القصور. فقالت : لست فاهمة ما تقولين ، ولا أدرى كيف يكون ولا ما تريدين ، فأفصحى عن مرادك ، وبيِّنى ما وراء هذا القول من أغراضك . فقالت : أردشير أكبر أبناء كسرى ووارث ملكه من بعده . فقالت : وما شأننا به الآن ؟ فقالت : رآك وهو مطل من نافذة القصر فسكنت قلبه ، وملكت عليه نفسه . فقالت : ثم ماذا ؟ فقالت : ويرجو منك أن ترحميه . فقالت عبلة : ويل لمن جهل قدر نفسه وغره سلطانه ، فغفل عن قدر عدوه ؛ لقد طمع صاحبك فى غير مطمع وليعلم أن لى زوجاً لا يسكت على ضيم يريده به أحد ، وليس وراءما يقوله صاحبك إلا هلاكه وتخريب دياره ، وما سمعنا أن ملكاً عظيما فى نفسه ، كريماً فى خلقه ، عريقاً فى أصله ، شريفاً فى حسبه — لا يصون الحريم ، فغاظ القابلة ما سمعت ، ولم تستطع أن تقول شيئاً ، وكادت من غيظها أن تلطم وجهها لولا أن أردشير وصاها أن تتلطف فى الحديث معها ، وألا

تؤذيها . ثم قامت. إليه وبلغته ما سمعت فقال : أخشى أن يكون غيظك من قولها هذا جعلك تسمعينها ما تكره . فقالت : ما وجهت إليها شيئاً تكرهه ، فقد كظمت غيظى فى نفسى ، ونفذت وصيتك ، ولم أحر جواباً . فقال : اتركيها الليلة تفكر فى أمرها ، وعسى أن أجد لى منفذاً إليها . وفى الصباح أحضر القابلة بين يديه ، وقال : لقد فكرت الليلة فيما قالت عبلة فتبين لى من قولها أنها عريقة النسب ، كريمة الحسب ، وفى الذروة من نساء العرب ، فما أضعف نفسها ما هى فيه من ذل الأسر ، ووحشة الوحدة ، وفقد الحامى والمعين ، وقد رأيت أن تحملى لها هذه الهدية لننظر ماذا يكون من أمرها معنا ، وكانت ثلاثة عقود من اللؤلؤ وثلاث حلل فاخرة ، وكانت عبلة قد اجتمعت بالمتجردة بعد انصراف القابلة وقصت عليها القصة برمتها . فقالت : لعن الله هذا الشاب ولعن ثديا أرضعه فلن يقدم على مثل هذا إلا نذل لئيم ، والحمد لله الذى عصمك وهداك إلى الرشاد فى قولك ، فقد حميت نفسك وحميتنا معك بهذه الإجابة الكريمة ، ولو كان فيها ضعف أو لين لطمع فينا. وأرى أن أمرنا مع هذا الوغد اللئيم فوق ما نحتمله . وليس لنا إلا مداراته حتى لا يرغمنا قسراً على مطالبه . فقالت : وكيف تكون المداراة والموت عندى أقرب منها إلى نفسى ؟ فقالت : إذا رجعت القابلة إليك تقولين لها : لقد فكرت فيما حدثتنى به من محبة أردشير ، واهتديت إلى وجه الصواب فيه ، وذلك أن يمهلنى ثلاثة

أيام يسخو علينا فيها بألوان الطعام؛ حتى تنقشع عنا آثار السفر، وترد إلينا نضرتنا وجمالنا، فقالت: وما فى ذلك القول من المداراة؟ ولا أحسبه إلا زلقاً لن أركبه، فقالت: ماهو بزلق ولكنه معصم يقينا شر الخطر، وأمر ألمح فيه المخلص والسلامة من ناحيتين: أما الناحية الأولى فإن الله يقلب الليل والنهار، والأيام حبالى يلدن كل عجيب، وعسى أن نفاجأ فى مدة الإمهال بفرج غير منتظر. وأما الناحية الثانية فإنه سيغمرنا بكرمه فى هذه الأيام، ومن عادة الملوك أن تكون على موائدها سكاكين وملاعق، فإذا وضعت المائدة أمامنا وأكلنا خبأت كل واحدة منا سكيناً، وحفظتها معها كأنها خنجر، فإذا انتهت الأيام الثلاثة ووجدناه لا يزال يلح فى طلابك ثرنا جميعاً وأنذرناه: إن لم ينته عن غيه هذا قتلنا أنفسنا بالسكاكين التى فى أيدينا وتركناه إلى رجالاتنا وإلى العرب ينتقمون منه ومن أمته ويكون الموت حينئذ أكرم على أنفسنا وأهلينا وقومنا، وأجمعت النساء على رأى المتجردة ورضيت به عبلة واستراحت إليه. ولما رجعت إليها القابلة بهدية أزدشير قبلت الهدية فرحة شاكرة، ودعت له بدوام الملك والعزة، وطلبت إليها إمهالها ثلاثة أيام يعنى فيها أزدشير بإطعامهن طعاماً جميلا، ويسترحن فيها من هذا السفر الطويل، ففرحت القابلة بما قالت، ولمع لها نجم الأمل، وأفهمتها أن أزدشير فى خنصرها، ومطيع لأمرها، وهنأتها باهتدائها إلى الصواب فى أمرها، واختيارها هذه الحال التى تدفع عنها الضر، وتظلها بظلال الهناءة والخير، وما لبثت

أن نهضت مسرعة إلى أردشير، فبشرته بما استقرت عبلة عليه وأشارت به، فانتشى، وانتبه من حيرته، وظن أنه ملاق مأربه، وأمر الخدم والإماء أن يقوموا بتدبير أفخر الأطعمة، وأن تستكمل كل وجبة تقدم إليهن مظاهر الترف والغنى من صحاف ذهبية وفضية وسكاكين وملاعق وأكواب وأباريق وقطائل، وأن تحتوى المائدة ألوان الأطعمة، من لحم طير مما يُشتهى، وفاكهة مما يُتخير.

وحضرت أول مائدة حافلة بكل ما تشتهيه الأنفس، وبعد أن أكلت عبلة وبقية النساء أخفت كل واحدة سكينها، فلما رفعت تفقد الخدم السكاكين فلم يجدوها، فسألوا النساء عنها فأنكرن معرفة شيء عنها، ولما بلغوا كبيرهم قال: لا يزعجكم ضياع شيء لدى النساء فقد أمرنا كبير الوزراء ألا نسألهن عن شيء، ولا نحملهن مسئولية أى شيء. وهكذا توالى إكرام النساء ثلاثة أيام متواليات وأردشير يرتقب اليوم الرابع بفارغ الصبر. فلما أشرق صبحه أرسل إلى عبلة قابلته لتخبرها أن تتهيأ للمبيت عند أردشير ليلة هذا اليوم القادمة، وما كادت القابلة تنتهى من تبليغ رسالتها هذه حتى انفجرت عبلة فى جرأة نادرة: تبًّا لك أيتها العجوز اللئيمة! وتبًّا لابن ملككم العتل الزنيم! بلغى صاحبك أن يكف عن هذا، فلو قطع جسمى قطعاً، وجعلنى طعاماً للوحش والطير، ما رآنى سامعة له فى قليل أو كثير، وبلغيه أننا ما طلبنا الطعام من جوع، ولكننا اتخذنا هذا الطلب

وسيلة للحصول على سكاكين فى أيدينا حتى إذا ما وجدناه قد اشتط فى لؤمه وخبثه وأصر على تحقيق الخسيس من مأربه قتلنا أنفسنا قبل أن يلوث شرفنا ويلغ فى أعراضنا ، وتركناه للعرب من قومنا يطالبونه بدمائنا وهم لا يكفيهم ملك أبيه فينا . فقالت العجوز : كأنك كنت تمكرين بابن الملك ؟ فقالت : نعم ، وذلك لصون أنفسنا من لؤمه وعبثه ، فقالت : إنه إن بلغه هذا عنك غضب عليك وسقاك كئوس الهوان فقالت : إنه ليشرفنا أن نعذب ونهلك ولا نفرط فى شرفنا وكرامتنا ، فأمسكى عن وسوسة الشياطين أيتها اللئيمة الفاجرة ، ثم لطمتها على وجهها لطمة قوية ، فخافت أن تتبعها بأخرى ، ونهضت مسرعة هاربة وقصت على أردشير ما حصل ، فاغتم وابتأس ، وقال : لقد مكر بنا راعيات الغنم وما كان لنا أن نقع فى حبائل مكر العرب ونحن فيه السابقون الأولون فقالت : إذا كانت قد مكرت فقد استحقت العقوبة ، وأصبحت غير جديرة بالحياة فينا ، فقال : لن أستطيع قتلها أو قتل واحدة من صاحباتها ، فربما رجع أبى من غزوته خاسراً ، وربما أحب أن يستأمن نفسه من العرب برد هؤلاء النساء فأضيع عليه هذه الفرصة بقتلهن أو قتل واحدة منهن فيجازينى بحرمانى من ملكه ويجعله لأخى الذى هو أصغر منى ، ويحسن بى أن أنتظر حتى يأتينى أبى ، فإن كان منتصراً أصبح أمرهن فى أيدينا نصرفه كيف نشاء وإن ارتد إلينا مهزوماً لم أضيع عليه شيئاً ربما كان فى حاجة إليه .

وفى الصباح جاء البشير إلى المدائن بنصر كسرى وأسر عنترة وكبار الأبطال من العرب وزعماء فرسانهم ، ففرح أردشير وأمر المدينة أن تلبس ثياب زينتها ، وأن تقف النساء الأسيرات فى مكان يرين منه رجالهن محبوسين فى أغلال الأسر والمذلة ، وأن ينادى مناد باسم كل بطل من أبطال العرب يمر بهن ؛ وهكذا رأى رجال العرب نساءهم ورأى النساء أبطالهن ، فامتلأت قلوبهن همًّا وغمًّا ، وامتلأت قلوب رجالهن غيظاً وغيرة ، وجلداً وجرأة ، وكانوا محمولين على الجمال .

لم يستطع عنترة صبراً على هذه الحال ، فألقى بنفسه على الأرض ، ونادى فى صحبه أن ألقوا بأنفسكم ، واطلبوا القتل فى سبيل الخلاص ، فليس فى الحياة خلود ، والموت فى سبيل المكارم حياة ؛ فألقوا جميعاً بأنفسهم ، ووقفوا أسوداً مقرنين فى الأصفاد ، وطلبوا من الفرس أن يقتلوهم بعد فكاكهم من قيودهم إن كان لديهم بقية من نخوة ورجولة ، فاغتاظ أردشير ، وأمر أن يلقوا أمام الفيل المجنون واحداً فى إثر واحد ، ليقتلهم ويستريح منهم ، وأمر أن يقدم عنترة أولا وأرسل فى الحال قابلته إلى عبلة لتخبرها بما عزم عليه من إلقاء عنترة ورجاله أمام الفيل المجنون مقيدين ، فربما أضعفها الخوف على زوجها ورجالها فارتدت عن صلابة رأيها ، ورضيت بما يبغيه منها ، وظن أنها ستقدر هذا الموقف ، وتعطيه حقه من العناية ، واهماً أنها ستفضل تسليم نفسها لتُبقى على زوجها ومن معه ، على أن تؤخذ قسراً مع فقد زوجها ومن

معه ، ومهما يكن من أمرها فستختار التسليم على الإباء ، وسترجعين إلىّ بهذه البشرى ، وهذا هو الفيل المجنون وهؤلاء الأسرى فى انتظار عودتك ، فإما رضيت فحقنا دماءهم ، وإما أبت فرميناهم تحت أقدام الفيل .

ذهبت العجوز إلى عبلة وبلغتها الإنذار الأخير فما غير من رأيها شيئاً وقالت : لو قتل بنى عبس وعدنان وبنى فزارة وغطفان على مرأى منى واحداً واحداً ما سمعت له قولا ولا أطعت له أمراً فليفعل ما يشاء فلسنا مخلدين فى الدنيا ولأن نموت أطهاراً كراماً خير من الحياة فى رجس وفجور.

فصكت العجوز وجه عبلة ، وانفلتت إلى أردشير مسرعة وقالت : لا تزال عبلة منيعة الجانب مصرة على إبائها وإعراضها ولو أفنيت العرب جميعهم على مرأى منها . فقال : ما أشد عناد النساء من العرب ، وما أصبرهن على الجرأة والجلد ، ثم أمر رجاله أن يلقوا بعنترة تحت أقدام الفيل وهو محبوس فى أغلاله وقيوده ، فدفعه الفيل بخرطومه دفعة قوية ألقته بعيداً، ولكن عنترة تمطى فى أغلاله فقطعها ثم صرخ فى الفيل صرخة عالية ، وأمسك خرطومه بيده ، وهو مقبل عليه يدوسه فكتم أنفاسه ، وحاول التخلص من قبضته فما استطاع ، وانتابته غيبوبة احتضار سقط فى أثرها على الأرض جثة لا حياة فيها ، وكان هلاك الفيل فى يد عنترة مثار دهشة وحيرة لدى الفرس . أما أردشير فقد غرق فى لجة من الغم والحزن ، وخشى على نفسه من أبيه ، إذ كان سبباً فى قتل الفيل الذى يحبه ، ولجّ به الغم فأمر أن

يصلب العرب ويقتلوا ، فتقدم إليه أحد الوزراء وقال : لا نزال نرى من فرسان العرب كل أمر عجيب فتمهل ولا تعجل ، وانتظر عودة أبيك فربما عاد مهزوماً ، وحينئذ يكون له الأمر ، فقال : أما عنترة هذا فلا بد من صلبه ورشقه بالسهام حتى يموت ، وأما بقية الفرسان فافعلوا بهم ما تشاءون.

فلما رأت عبلة إصراره على رأيه ، وامتثال فرسانه له لجأت إلى الاحتيال لتخلص زوجها من موت محقق ، فقالت للمتجردة : لقد عزمت على أن أكون فداء لابن عمى وزوجى ، فقالت : وكيف ذلك يا عبلة ؟ فقالت : أن أرسل إلى أردشير بأنى نزلت على رأيه وأجبته إلى رغبته ، وأطاب إليه أن يرجئ قتل عنترة ؛ فإنى حاضرة لديه الليلة فى مقصورته ، فإذا خلوت به احتلت فى قتله ، فإن لم أستطع قتله تمنعت عليه ، وحينئذ يغضب ويعجل بقتلى ، والله يفعل ما يشاء بعد موتى ، وأوصيك أن تبلغى تحيتى إلى ابن عمى ، فإنى لم أخنه بالغيب فى نفسى ، فقالت : لئن فعلت ذلك وقتلت ابن الملك فلن يبقى الفرس منا واحدة ، ولكن القبر فى شرف وعفة خير من قصور الملوك فى إثم وخيانة ، فافعلى يا عبلة ما تشائين ، فلا نزال على شرفنا والله يعصمنا وينجينا .

عجلت عبلة باستدعاء العجوز القابلة ، وقالت لها : لقد انفطر قلبى من أجل عنترة ورجاله ، وقد رأيت أن أعصمهم بالنزول على رغبة أردشـــير وأريد أن أذهب إلى الحمام لأغتسل ثم أذهب إليه ،

فقالت : الآن أشرق سعدك ، وعصمت رجالك ، فأبشرى بنيل مرادك ، وانتظرينى حتى أرجع إليك ، وذهبت القابلة إلى أردشير فبشرته بفوزه على عبلة ، وأخبرته بما قالت. فأمر أن يوضع عنترة وصحبه فى معتقلهم سالمين ، وأن تلبس عبلة أفخر ما فى القصر من ثياب ، وتتحلى بأغلى ما فيه من زينة ، وأن تتطيب بأحسن ما فيه من أنواع الطيب ، وأن تكون الجوارى والخدم تحت أمرها ، فكانت فى القصر شمسه المنيرة ، وتحفته البهيجة . ولما جاء الليل سارت إلى مقصورته مفكرة فى ذلك المصير الذى يرتقبها أهو لها أم عليها ؟ راجية أن يكون هلاكها بعد هلاك غريمها ، فهى لا تتكلم ولكنها تبتسم ابتسامة براقة فى ثغرها ، والهم يعتلج فى حنايا فؤادها ، فلما دخلت عليه نهض قائماً يحييها ، وأجلسها بجانبه على سرير من ذهب مرصع بالجواهر مفروش بصنوف من سندس وإستبرق ، وأخذ يعاتبها على تمنعها وحرمانه منها وهى لا تجيبه إلا بابتسامة خادعة ، تشرق بنورها فى صدره ، ولكنها تحرق فؤادها بحرارتها ، ثم وضعت أمامهما مائدة حافلة بصنوف الطعام والشراب وأخذا يأكلان ، وأخذ هو يطعمها أحسن ما تقع عليه العين ، وأحلى ما تشتهيه النفس ، أخذت هى تأكل أكل من يودع دنياه ، ويستقبل آخرته ؟ وبعد أن طعما وشربا دنا منها ، وضمها إليه . فقالت : أما كان فى قصرك غير هذه المقصورة التى لا تحجبنا عن أعين جواريك وخدمك ، فجعل يدور بعينيه فى نواحى المقصورة ويرسلهما خارج نوافذها محاولا أن تلتقيا بخادم أو

عبلة تضرب أردشير بسكينها

جارية ، فغافلته فى أثناء ذلك، وأخذت سكيناً ماضية من سكاكين المائدة
وأغرقتها فى صدره، فخر على الأرض صريعاً بعد صرخة واحدة، ولما سمعت
القابلة تلك الصرخة ظنت أن عبلة تأبت عليه فقتلها ، فدخلت عليهما
مسرعة مضطربة فتلقتها عبلة بضربة سكين مزقت ثيابها، ولم تصبها فى
جسمها، فأدبرت وفرت من وجهها هاربة ، وفزعت إلى أخيه قباز وكان
أكبر من أخيه الآخر أنوشروان وكان معروفاً بالاستقامة والعدل والذكاء
وفصاحة اللسان ومحبة الرعية له ، فأخبرته بما حصل لأخيه من عبلة فقال :
ما أمكن هذه البدوية من أخى إلا ظلمه وعدوانه ، فقالت : صدقت ،
فقد حاول أن يظلمها فى شرفها وعفتها، وقصت عليه قصته معها ، فقال :
ما جزاء من أراد بالحرائر سوءاً إلا أن يسجن أو يقتل أو عذاب أليم . ثم
سمع ضجة فى القصر فخرج يتبينها فوجد الرجال قد ثاروا لقتل أزدشير وهبوا
بأسلحتهم إلى المعتقلين والمعتقلات من العرب ليقتلوهم فى أخيه الذى قتلته
عبلة، فصاح فيهم أن أغمدوا أسلحتكم وارجعوا إلى أماكنكم ، ودعوا ما
ليس لكم فيه رأى ، ثم ذهب إلى مقصورة أخيه القتيل، فوجد عبلة قد
وقفت عند بابها والسكين فى يدها مصبوغة بدم أخيه وقد أصابها هى سعار
الحمية، وتفصد جبينها عرقاً، ولا يقدر أحد أن يدنو منها مخافة ورعباً، ولكنه
هدأها ودنا منها قائلاً : لا تخافى ولا تحزنى ، فما فعلت أمراً يغضبنا ،
وما كنت إلا مدافعة عن شرفك وعفتك ، وذلك أمر يبيح لك أن تفعلى فى

سبيله كل شيء ، فاذهبي إلى صواحبك من نساء العرب ، فقد أمنتكن
على أنفسكن ورجالكن ، واتبعينى غير خائفة إلى معتقلهن .

وهناك وكل بهن حرساً يحفظهن، ويقطع عنق من يرومهن بسوء، وكان
ذلك على مسمع ومرأى من عبلة وهى داخلة ، ورأتها صاحباتها مقبلة
فزال عنهن الهم وقلق الانتظار، وأقبلن عليها سائلات عما جرى ، فسردت
عليهن كل شيء، وبذلك سكت عنهن القلق فى ظلال ذلك الأمن الموعود.

أما قباز فقد رجع إلى مقصورة أخيه، وأمر أن يكفن ويوضع فى تابوت
وأن يواريه التراب ، ويوارى سوءاته، ثم عاد إلى حجرته فجلس فيها واستدعى
إليه شيخاً كبيراً حنكه الدهر، وصقلته التجارب، فأجلسه بجانبه، وقال له: كم
تمنيت أن يكون فى يدى ملك أبى ، لا حباً فى الملك والاستمتاع به ،
ولكن حباً فى أن أنشر بين الناس العدل والإنصاف ، وأن أحميهم من كل
ظلم وحيف ! ! فقال: الآن أصبح الأمر فى يدك والآن أنت ملك إن شئت .
فقال : أنسيت أن أبى لا يزال حياً وهو على رأس جيش جرار يحارب به
العرب ويفتح البلاد ، وأن أسره أبطال العرب الذين هم فى القصر الآن
شاهد على أنه لا يزال قوياً منتصراً ؟ فكيف أنسب ملكه لنفسى ؟! فقال:
أمرك عليك هين وجد يسير ، وذلك أن تذهب إلى الأسرى من العرب
وتحكى لهم قصة عبلة وأخيك أزدشير وصرفك عنهم رجال القصر أن يثأروا
له منهم ومن نسائهم ، وثورتك على هذا الظلم الذى تأباه كل نفس كريمة

ورغبتك فى الاستيلاء على ملك أبيك لتمحو الظلم وتنشر العدل ، ثم تطلقهم من ربق الأسر ، وتجمعهم بنسائهم ، وتعطيهم خيلا ، وتمنحهم أموالا وسلاحاً ، وتطلب إليهم أن يتنكروا فى زى الفرس ، ويأخذوا نساءهم إلى بلادهم ، ثم يذهبوا هم متنكرين إلى أبيك فيقتلوه ، وبذلك يصفو لك الجو ، وتجلس على عرش أبيك .

فصدع قباز بمشورة ذلك الشيخ الكبير ،وذهب إلى العرب فى معتقلهم يقص عليهم ما دبره ذلك الشيخ وأشار به ؛ فقال عنترة : إنى بإجلاسك على عرش أبيك زعيم ، ولن نبرح مدينتكم هذه حتى يكون ملك أبيك فى قبضة يدك ، ولا ينازعك فيه أحد ؛ فقال : وستكون لكم السيادة الكاملة والمعونة الصادقة منا ، وأجعل حاكمكم من تختارونه وتحبون أن يلى أمركم ، وأن يكون ملكاً فيكم سواء أكان أخا النعمان أم غيره من سادات العرب . ثم أصدر فى الحال أمره أن يلتقى النساء برجالهن ، وأن تفتح أبواب معتقلاتهم ، وأن يجابوا إلى ما يطلبون ، وقال لهم : هذه خزانتى مفتحة أبوابها لكم ، فخذوا منها ما تشاءون ، وأنا معكم فى كل ما تحبون ، وسيكون الأسود أخو النعمان ملكاً لكم كما أحببتم ورغبتم . فقال عنترة : وإذا لم تجعل الأسود ملكاً فينا جعلناه بسيوفنا ؛ فابتسم قباز وقال : ذلك ما أعلمه عنكم ، وأراه رأى العين فيكم ، فأنتم مفخرة العرب ، وعنوان قوتها وبأسها ، ولكم فى نفسى كل محبة وإجلال .